روايـة

رواياتي

ستيفاني ماير

حياة بري تانر الثانية



ستيفاني ماير

حياة بري تانر الثانية

سوف يُفتن محبّو سلسلة "توايلايت" بقصة "بري تانر" المثيرة، وبخفايا عالم مصّاصي الدماء الجدد الذي تعيش "بري" وسطه.

***

لا تتذكّر "بري تانر" سوى بصعوبة كبيرة حياتها السابقة... قبل أن تستحوذ على قدرات حسيّة عالية الدقة، وقوى بدنيّة لا حدود لها، وقبل أن يصبح لديها عطش لا ينطفئ للدماء... أي قبل أن تتحوّل إلى مصاصة دماء.

لم يكن في حياة بري تانر سوى شبح الخوف من غدر أترابها من مصاصي الدماء الجدد. ثم تكتشف بري صديقاً لم تكن تتوقع وجوده، وهو دياغو الذي كان يشاركها فضولها لكشف الغموض عن الشخصية الشريرة التي خلقتهم. وقد تأكّد الصديقان أنّهما وأترابهما مجرّد دمى في لعبة كبيرة يجهلان أبعادها.

مرّة أخرى، وفي أجواء متشابكة من الرّعب والغموض والرومانسية تقصّ علينا ستيفاني ماير حكاية "جيش الجدد" منذ نشوئه، وتصف لنا مراحل استعداداته للانقضاض على بيلا سوان وعائلة كولن، ثمّ تصطحبنا إلى المعركة التي انتهت بخسارتهم الذريعة المعروفة.

"رواية مفاجئة يُدمنها القارئ إدماناً.."

يو إس توداي

"كما بقيّة رواياتها، ستيفاني ماير شخصيّة نادرة ومتفوّقة في مواهبها.."

مجلة التايمز

"ظاهرة أدبيّة"

نيويورك تايمز











المركز الثقافي العربي

ستيفاني ماير

حياة بري تانر الثانية

ستيفاني ماير

حياة بري تانر الثانية

ترجمة: أمال نعيم الحلبي

سما للنشر



- الكتاب: حياة بري تانر الثانية
- تأليف: ستيفاني ماير
- ترجمة: أمال نعيم الحلبي
- الطبعة الأولى، 2010
- ISBN: 978-9953-68-490-1
- الناشر: **سما** للنشر
- العنوان: 10 شارع أبو فراس الحمداني
الدار البيضاء - المغرب

Email: sama@menara.ma

هاتف: 06 36 28 0522

بيروت

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 352826-01 فاكس: 343701-01

توزيع:

المركز الثقافي العربي

بيروت

ص. ب: 5158-113

هاتف: 352826-01 فاكس: 343701-01

Email: cca@ccaedition.com

الدار البيضاء

42 الشارع الملكي (الأحباس)- ص.ب: 4006 (سيدنا)

هاتف: 39 33 30 0522 فاكس: 26 57 30 0522

Email: markaz@wanadoo.net.ma



يتضمن هذا الكتاب ترجمة لكتاب:

Original Title: **The Short Second Life of Bree Tanner**

Author: **Stephenie Meyer**

This edition is published by arrangement with Little, Brown and Company, New York, USA.

المقدّمة

عندما انتهيت من كتابة «خسوف»، الرواية الثالثة في سلسلة «توايلايت»، تبلورت في مخيلتي شخصيّة بري تانر وارتسمت خطوط حياتها. لعبت بري تانر دوراً قصيراً في الأحداث التي أوصلت فصول الرواية «خسوف» إلى نهايتها، لكنّ ملامح شخصيّتها المتميّزة، فرضت عليّ استعراض شريط حياتها الصعبة أمام القارئ.

يتعرّف القارئ عادةً إلى مختلف الشخصيات في الرواية من خلال وعي الشخصية الرئيسة لها. لم تكن بيلاّ قد شاهدت في حياتها مصّاص دماء جديداً قبل بري تانر. لذلك، وبعد انتهائي من كتابة «خسوف» وشروعي بالمراجعة، قمت باستعراض العالم الذي تدور فيه أحداث الرواية، ولكن من خارج منظار بيلاّ هذه المرّة؛ وفيما كنت أصف بشكلٍ مقتضب بعض الجوانب الخفيّة للقصّة، وجدت نفسي أتخيّل يوماً كاملاً في حياة بري تانر. تخيّلت المعاناة غير الإنسانية التي عاشتها بري عندما تحوّلت إلى مصّاصة دماء. وعايشتها في القبو وسط أترابها المتوحشين، وإلى

جانب فرِد المقزّز. ثمّ رافقتها في خروجها إلى رحلات الصيد وتعرّفها إلى دياغو.

مع بري، أعيش لأول مرّة شخصية مصّاص دماء «حقيقي» وأرى الدنيا من منظارها الوحشي المترقّب لاقتناص الطرائد الانسانيّة الضعيفة. كان عليّ الغوص هذه المرّة في عالمٍ مختلف كليّاً، وهو عالم مصّاصي الدماء الجدد. حتّى مع بيلّا، لم يتسنّ لي اكتشاف عالم «الجدد»؛ إذ إنّ ملابسات تحوّل بيلّا إلى مصّاص دماء جعلتها مختلفة عن بري. حياة بري تانر كانت مثيرة وداكنة ومأسويّة إلى درجة جعلتني أتمنّى، عندما كنت أقترب في الكتابة من نهايتها الحتميّة، لو أنّي أنهيت 'خسوف' بطريقة مختلفة بعض الشيء.

أتساءل كيف ستستقبلون شخصيّة بري تانر. كان لهذه الفتاة ظهورٌ مقتضب ومتواضع في «خسوف»، ولكنّ الاطّلاع على قصّتها من شأنه توضيح جوانب عديدة وفاعلة في أحداث تلك الرواية. عندما قرأتم ذلك المشهد في «خسوف»، الذي يصف بيلّا وهي تحدّق إلى بري، وترى فيها صورة محتملة لما ستصبح عليه هي نفسها في المستقبل، هل تساءلتم عن العوامل التي أوصلت بري إلى ذلك الموقف؟ وعندما شاهدت بري بيلّا وعائلة كولن، هل عرفتم كيف كانت صورتهم في عينيها؟ حتّى لو عرفتم شيئاً من ذلك، أراهن أنّ هناك أسراراً لم تكتشفوها بعد.

أتمنّى أن تهتمّوا بشخصيّة بري وتحبّوها؛ وأخشى أن تكون

أمنيتي هذه قاسية عليكم، لأنّ نهاية بري لم تكن سعيدة، كما تعلمون. ولكنّكم ستطّلعون الآن على القصّة بمجملها، وتدركون الحقيقة وهي أنّنا إذا نظرنا إلى مشهدٍ معيّن من نافذتنا الضيّقة، فذلك لا يعني أنّ أفق هذا المشهد ينتهي دائماً عند إطار نافذتنا. فالأمور التي قد تبدو صغيرة وواهية بالنسبة إلينا، قد تكون في الواقع أكبر وأهمّ ممّا نتصوّر.

هيّا، أبحروا في القراءة واستمتعوا!

ستيفاني

مدينة سياتل تحت الحصار- أرقام القتلى تتصاعد

قفز هذا العنوان إلى عينيّ فيما كنت أنظر باتجاه صندوق بيع الجرائد الآلي المثبت على الرصيف. محظوظٌ ذلك الصبي الذي انطلق بعيداً بعد أن أعاد ملء الصندوق منذ لحظات؛ لقد نجا منّي.

عظيم! إنّي الآن خارج المنزل ولن يطالني انفجار غضب رايلي عندما يقرأ هذا الخبر الطازج. لا بأس، فليمزّق ذراع غيري هذه اللّيلة.

وقفت في زاوية مظلمة في الطابق السفلي من عمارةٍ قذرة تتألّف من ثلاثة طوابق. حاولت عدم لفت الأنظار بينما يتّخذ مرافقيّ القرار المتعلّق بما سنفعله، ولم أحوّل نظري عن الحائط الذي أمامي حتّى لا تلتقي عيناي بعينيّ أحد المارّة. يبدو أنّ الطابق السفلي كان في ما مضى مخزناً لبيع الاسطوانات، ولكنّه أغلق منذ زمنٍ بعيد؛ لقد كسر زجاج نوافذه نتيجة أعمال الشغب أو رداءة الطقس، واستبدل بألواح من الخشب. كان المكان خالياً من السكان إذ لم أسمع أيّاً من الأصوات التي يصدرها

الآدميّون خلال نومهم. ولا عجب في ذلك، فالبناء يبدو مهدّداً بالانهيار في أيّ لحظة، كما لم تكن الأبنية القائمة على الجهة المقابلة من ذلك الشارع المظلم بحالةٍ أفضل.

إنّه الإطار العادي لنشاطاتنا الليليّة!

تفاديت الكلام حتى لا ألفت الأنظار. ولكنّ صبري كاد يفرغ وحنجرتي تكاد تحترق عطشاً. متى سيقرّران إلى أين نتّجه؟ إلى اليمين، أو إلى اليسار، أو إلى السطوح. أريد الانقضاض على أحد التعساء الذين لن يجدوا لحظة واحدة ليلعنوا قدرهم الذي قذف بهم في لحظةٍ غير مناسبة إلى هذا المكان غير المناسب.

أرسلني رايلي للصيد اللّيلة مع اثنين من أشدّ مصّاصي الدماء غباءً على الإطلاق. لا يأخذ رايلي في الاعتبار عامل الانسجام بين الأفراد عندما يأمرهم بالذهاب معاً إلى الصيد؛ ولكنّه يغضب عندما يحدث اصطداماً بينهم، فلا يعود إلى البيت سوى من نجا من براثن رفاقه وبقي على قيد الحياة. فُرِض عليّ اللّيلة مرافقة كيفن ورفيقه الأشقر الذي أجهل اسمه، وكلاهما من عصابة مصّاص الدماء راوول، ما يعني أنهما في غاية الجهل والخطورة. ولكن ما يُغيظني الآن بنوعٍ خاصّ، هو شدّة بلاهتهما.

وعوضاً عن اتخاذ القرار بشأن الطريق التي سنسلكها بهدف الصيد، كانا يتباريان في وصف الشخصية الخيالية المفضّلة لدى

كلّ واحدٍ منهما، والتي يفترضان أنّها الأكثر براعةً في الصيد. وكان الأشقر يقوم بتمثيل دور «الرجل العنكبوت» الذي يخرج إلى الصيد؛ فيتسلّق الجدران صعوداً وهبوطاً ويردّد بصوتٍ خفيض الأغنية الخاصّة بالرجل العنكبوت التي كنّا نسمعها في أفلام الصور المتحرّكة. كنتُ أتنهّد قهراً، وأتساءل متى سينتهيان وننصرف إلى الصيد.

وفجأةً، أدرت رأسي بعد أن أحسست بحركة إلى يساري؛ فرأيت مصّاص الدماء الآخر الذي كان معنا. علمتُ أنّ اسمه دياغو، ولكن عدا ذلك، لم أعرف عنه سوى كونه أكبر سنّاً من معظم الآخرين؛ إضافةً إلى أنّه مقرّبٌ من رايلي وبمثابة ساعده الأيمن، وهذا ما كان يدفعني للنفور منه أيضاً.

نظر دياغو إليّ، لكنّني تفاديت النظر إليه بشكلٍ مباشر. فالخضوع والصمت شرطان أساسيّان لحفظ الرأس بين أتباع رايلي.

«الرجل العنكبوت لا يربح في حياته». قال كيفن لرفيقه الأشقر وهو يضحك ساخراً، «دعني أريك ما يفعله الأبطال الحقيقيون».

ثمّ قفز إلى منتصف الشارع، وإذا بسيارة قادمة تنشر أنوارها الفضية فوق الاسفلت المتشقّق. فوجئ هذا الأخير وأراد التمادي في التحدّي والغرور، فرفع ذراعيه بحركةٍ إلى الوراء، ثمّ إلى الأعلى، مقلّداً أبطال المصارعة عندما يحيّون الجماهير قبل الوصول إلى الحلبة. لم تتوقّف السيارة بل تابعت التقدّم، فقد

توقّع السائق من كيفن الابتعاد كما يفعل المارّة العاديّون من البشر. وكما كان متوقّعاً من كيفن أن يفعل بالطبع.

«أيّها الوحش المجنون!» صرخ كيفن، «أيّها المجنون!» وقفز نحو السيارة قبل أن يتسنّى للسائق الضغط على الفرامل؛ أوقفها وقبض على أحد أجزائها الأمامية ورفعها فوق رأسه، ثمّ تركها تسقط على الأرض رأساً على عقب وسط قرقعة المعدن وتحطّم الزجاج، وزعيق امرأةٍ في الداخل تتكوّم خلف المقود.

هزّ دياغو رأسه، وأبدى امتعاضه. فلاحظتُ في تلك اللّحظة عينيه الواسعتين وشعره الأسود الكثيف والأجعد، وشفتيه المكتنزتين. كان يتمتّع بمستوى رفيع من الوسامة! ولكن أليست الوسامة صفة عامّة بين مصّاصي الدماء؟ فحتى كيفن ورفيقه الأبله كانا وسيمان. «هل نسيت يا كيفن تعليمات رايلي بعدم لفت الأنظار؟» قال دياغو مؤنّباً.

استعاد كيفن قول دياغو بسخرية، وقال: «كن شجاعاً يا دياغو، رايلي ليس معنا الآن».

وقفز «المجنون» فوق السيارة المقلوبة وكانت من نوع هوندا، وضرب بقبضته القاسية زجاج النافذة الجانبية الذي كان لا يزال سليماً، وأدخل يده لالتقاط السائق من خلال حطام الزجاج وكيس الهواء الواقي المثقوب.

أدرتُ ظهري وحاولت التزام الصمت والسيطرة على نفسي.

تحاشيت النظر إليه وهو يمتصّ دماء الضحيّة على الرّغم من العطش الشديد الذي كنت أشعر به. فقد قرّرت عدم الدخول في

صراعٍ معه، والتحوّل نتيجة لذلك إلى أحد الأهداف المدرجة على قائمة راوول.

لم يلتزم الصبي الأشقر الحَذَرَ مثلي، بل قفز من أعلى الحائط حيث كان رابضاً، وهبط بخفّة على الأرض. ثمّ ما لبث أن دخل في نزاعٍ كلامي مع كيفن. وما هي إلاّ لحظات حتى اختفى زعيق المرأة فجأةً، وارتفع صوت تمزيق اللّحم الطري فتوقّعت أنّهما كانا يشطران جسد المرأة إلى قسمين.

حاولت عدم التفكير في ما كان يجري ورائي، لكنّني كنتُ أشعر بالحرارة المتصاعدة وأسمع صوت جريان الدماء، وهو ما زاد في إحساس الاحتراق في حنجرتي على الرغم من حرصي على عدم التنفّس.

«أنا ذاهب»، سمعت دياغو متمتماً، وقد شرع في الابتعاد عنّا. تبعته حالاً، إذ عرفت أنّي لو بقيت في ذلك المكان، لدخلت في نزاعٍ عقيم مع أتباع راوول المجانين، على جثّةٍ لم يبقَ فيها سوى القليل من الغذاء في جميع الأحوال؛ وربّما سأكون أنا من ستعود المجموعة من دونها إلى البيت في الصباح.

«أوغ، ولكنّ حنجرتي تحترق!». أطبقت أسناني جيّداً حتّى لا أصرخ من الألم.

اندفع دياغو في ممرٍّ جانبي قذر، وعندما وصل إلى حائطٍ مسدود، قفز إلى أعلاه، فتبعته. ورحنا ننتقل بخفّة فوق سطوح الأبنية في اتجاه الأنوار المشعّة من جهة البحر.

بقيت في محاذاته، وكان بإمكاني أن أسبقه لأنّي أصغر منه سنّاً وأقوى منه، لكنّي أردت معرفة أين سيذهب، وكنت أخشى أن أدير إليه ظهري. في الحقيقة لو لم يكن الأصغر سنّاً هو الأشدّ بأساً بين مصّاصي الدماء، لكان من الصعب على الكثيرين منّا البقاء على قيد الحياة في بيت رايلي.

كنّا قد قطعنا أميالاً طويلة عندما سمعت دياغو يتمتم: «يا لحماقتهما... وكأنّ تنبيه رايلي إلى عدم لفت الأنظار ليس مبنيّاً على قاعدة الحفاظ على الوجود مثلاً. هل القليل من التفكير المنطقي صعبٌ عليهما إلى هذا الحدّ؟».

ناديته: «إسمع، هل سنتصيّد شيئاً في وقتٍ قريب؟ حنجرتي تشتعل عطشاً».

عندئذٍ، توقّف دياغو واستدار نحوي، فقفزت بضع خطواتٍ إلى الوراء بحركة وقائية، لكنّه لم يقم بأيّ تحرّك هجومي.

وقال وهو يبتسم بلطف: «أفضل الابتعاد عن هؤلاء المجانين».

ابتسم بلطف، فأمعنت النظر في وجهه.

يبدو لي أنّ دياغو هذا مختلف عن الآخرين... وكأنّه إلى حدّ ما... هادئ. لون عينيه الأحمر الداكن يؤكّد على أنّه أكبر منّي سنّاً. ولا عجب في ذلك، لقد سمعت أنّه تحوّل إلى مصّاص دماء منذ زمنٍ طويل.

مزيجٌ من الأصوات المتنافرة كان يصلنا من الشارع؛ ضجيج بعض السيارات وأصداء موسيقى نحاسية صاخبة. بعض المشاة

الذين يقطعون الشارع بحذر، وأحد السكارى يترنّح ويغنّي على هواه.

قال دياغو: «اسمكِ «بري»، ومن الأطفال الجدد، أليس كذلك؟».

«نعم، اسمي «بري»، ولكنّي لست من آخر مجموعة من المتحوّلين الجدد، فعمري نحو ثلاثة أشهر». كنت أمقت أن يدعونني «طفلة».

«أراك على مستوىً جيّد من الانضباط، برغم عمرك الصغير». قال ذلك، وكأنّه يمتدحني. تُرى هل أعجبته حقّاً؟

أجبت: «لا أريد الدخول في المشاكل مع أصحاب راوول الأغبياء».

أجاب: «هذا مؤكّد أيّتها الأخت العزيزة، فإنّهم في منتهى الغباء».

غريبٌ تصرّف دياغو! فهو يتحدّث إليّ حديثاً عادياً يذكّرني بالزمن القديم، وكأنّ أفكاراً مثل إمكانيّة قتلي حالاً، وسهولته أو صعوبته، لم تخطر في باله.

وإذا بفضولي يدفعني إلى طرح السؤال، فقلت: «كم مضى عليك من الوقت مع رايلي؟».

أجاب: «نحو أحد عشر شهراً».

قلت بتعجّب وإطراء: «هذا يعني أنّك أكبر سنّاً من راوول!».

أدار دياغو عينيه وبصق بعض السمّ من فمه على حافّة السطح. وتابع: «أتذكّر يوم أتى رايلي بذلك التافه؛ فمنذ ذلك اليوم راحت الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ».

التزمت الصمت خلال لحظة، وفكّرت في ما إذا كان دياغو يعتبر جميع الأصغر منه سنّاً تافهين. ولكنّي أتبع نصيحة رايلي في ما يتعلّق بهذا الموضوع، ولا أعير اهتماماً لما يفكّر دياغو أو غيره. لم يعد يهمّني ما يفكّر به أيٌّ كان. أنا أحد الآلهة الآن؛ إنّي أقوى وأسرع وأفضل... لا أهميّة في الكون لأحدٍ سواي.

ثمّ سمعت دياغو يتمتم بصوتٍ خفيض.

«اقترب الفرج... الأمر لا يتطلّب سوى قليل من الذكاء والصبر». وأشار بيده إلى الرصيف المقابل من الشارع.

قبالتنا، داخل الزقاق المظلم المتفرّع من الشارع الرئيس، وقف رجلٌ وامرأتان. كان الرجل يتهجّم على إحداهن ويضربها، بينما وقفت الثانية على بعد خطوات من المشهد تراقب بصمت. فعرفت أنّنا أمام قوّاد واثنتين من العاهرات العاملات لديه.

هذا بالضبط ما يطلب منّا رايلي القيام به – أن نتصيّد الحثالة من الناس. «تصيّدوا من الآدميّين هؤلاء الذين لن يفتقدهم أحد؛ الذين لا يعودون في آخر النهار إلى بيوتهم وعائلاتهم. هؤلاء الذين لن يتنبّه أحد إلى اختفائهم».

وبهذه الطريقة وقع اختياره علينا. الآلهة وطرائدها على السواء، مصدرهم الحثالة.

كنت اتبع نصيحة رايلي بالنسبة لهذا الأمر. ليس لأنّني أحبّه، فهذا الشعور قد اختفى منذ **زمن طويل**؛ بل لأنّ ما قاله يرتكز على المنطق. فماذا يفيدنا لو لفتنا انتباه الناس إلى أن مجموعة من مصّاصي الدماء الجدد تتّخذ سياتل حقلاً لصيدها؟

لم أؤمن بوجود مصّاصي الدماء قبل أن أصبحت واحدة منهم؛ وهذا يعني أن جهل الناس لوجود مصّاصي دماء يعود إلى حرص معظم هؤلاء على الصيد بحذر. ويبدو أنّهم على حقّ.

وكما قال دياغو، فالأمر لا يحتاج سوى لقليل من الذكاء والصبر.

لا شكّ أنّ جميعنا يقترف أخطاء فادحة في بعض الأحيان؛ ويقرأ رايلي الجريدة في اليوم التالي ويستشيط غضباً، ويصرخ ويحطّم الأشياء – مثل تحطيمه لجهاز ألعاب الفيديو المفضّل لدى راوول – ويغضب راوول ويهاجم أحدهم ويمزّقه إلى أشلاء ثمّ يحرقه. بعد ذلك، يفتّش رايلي عن جميع الولّاعات وعلب عود الكبريت الموجودة في البيت ويخبئها في مكانٍ خاصّ. بعد أن تتكرّر هذه القصّة عدّة مرّات، يحضر رايلي إلى البيت مجموعة جديدة من الأوغاد، بعد أن يحوّلهم إلى مصّاصي دماء جدد للتعويض عن الذين خسرهم. وهكذا ندور في حلقة مفرغة لا نهاية لها.

ابتلع دياغو نفساً عميقاً وطويلاً، فرأيت جسده يتغيّر، ومظاهر الوحشية تتغلّب عليه. ها هو يتحوّل إلى صيّاد في هذه اللّحظة ويستعدّ للوثوب.

لم يكن تغيّر دياغو المفاجئ غريباً بالنسبة لي؛ بل كان مألوفاً ومحبّباً.

توقّفت بدوري عن التفكير والتحليل، فها أنّ وقت الصيد قد حان. تنشّقت نفساً عميقاً معطّراً برائحة الدم الذي يجري في عروق هؤلاء الذين كنت لا أزال أراقبهم. كان هناك أناس آخرون في الشارع، ولكن هؤلاء كانوا يقفون في مكانٍ أقرب. يمكنني التروّي في اختيار ضحيتي قبل أن تصل رائحة الدماء إلى أنفي. أما بعد ذلك، فالتراجع يصبح مستحيلاً.

قفز دياغو عن حافّة السطح واختفى عن ناظريّ؛ ولكنّه ما لبث أن حطّ على الأرض بخفّة من دون أن يلفت انتباه العاهرتين، ولا الرجل الغاضب.

وإذا بصوتٍ يفلت منّي ويقول: «هذه الدماء لي... إنّها لي!». وازداد شعور الاحتراق في حنجرتي، ولم يعد باستطاعتي التفكير في أيّ شيءٍ آخر.

فرميت نفسي في الهواء، واستدرت مثل كرةٍ طائرة في فضاء الشارع، ثمّ حطّيت بقرب المرأة الشقراء التي كانت تصرخ. شعرت بوجود دياغو ورائي، فهدرت محذّرةً إيّاه من أيّ تصرّفٍ أرعن، ثمّ التقطت المرأة بشعرها وشددتها إلى قرب حائط الزقاق، وحميت ظهري به.

وسرعان ما شعرت بحرارة الضحيّة وسمعت صوت نبضها يتصاعد إلى سطح الجلد. فغاب عندئذٍ كلّ شيء عن ذهني، حتّى خطر الغدر المحتمل من جهة دياغو.

فتحت فمها لتزعق، لكنّي سارعت إلى قضم حنجرتها قبل أن يخرج منها أيّ صوت، غير خرخرة الهواء، واحتقان الدم الفائر في رئتيها؛ وأنينها المخنوق الذي لم أتمكّن من السيطرة عليه.

كانت الدماء دافئة وحلوة الطعم؛ فقد أطفأت النيران المشتعلة في حنجرتي وهدّأت شعور الفراغ المزعج في معدتي. واستغرقت في المصّ والبلع حتى كاد أن يغيب عنّي الشعور بكلّ شيءٍ حولي.

سمعت حشرجة مماثلة آتية من صوب دياغو. لقد كان ممسكاً بالرجل في تلك اللّحظة، فيما كانت المرأة الأخرى ممدّدة أرضاً وغير واعية.

المشكلة التي نواجهها مع الآدميّين أن دماءهم غير كافية. لقد نفد دم ضحيتي بسرعة، فهززت الجسد الجافّ بعصبية، ورميته على الأرض إلى جانب الحائط. وشعرت بحنجرتي وقد عادت إلى الاشتعال من جديد.

فكّرت في إمكانيّة الحصول على المرأة الأخرى قبل دياغو.

ولكنّ دياغو كان قد انتهى من الرجل. ورأيته يرمقني بنظرات... عطف. ولكن قد أكون مخطئة كثيراً في تقديري. لا أتذكّر أنّ أحداً عطف عليّ في حياتي، فمن أين لي أن أتحقّق كيف يكون ذلك؟

ولكنّه ما لبث أن قال: «هيّا، خذيها». وكان يشير برأسه للمرأة الممدّدة على الأرض.

قلت: «هل تمازحني؟».

«كلاّ. لقد اكتفيت الآن، وسوف يتسنّى لنا المزيد من الصيد اللّيلة».

راقبته جيّداً، فلعلّه يحاول الإيقاع بي، والتقطت جسد المرأة غير الواعية. لكنّ دياغو لم يعترضني، بل ابتعد قليلاً وراح ينظر إلى السماء السوداء.

غرزت أنيابي في عنقها، مبقيةً نظري عليه. كان طعم دماء هذه الضحية ألذّ من طعم دماء سابقتها، فهي نظيفة كليّاً؛ لقد تعوّدت على مذاق المرارة في دماء معظم الضحايا بسبب تعاطيهم المخدرات، وبتّ لا ألاحظه في معظم الأحيان. من النادر جدّاً أن أتلذّذ بطعمٍ نظيفٍ حقّاً، لأنّي ألتزم بقاعدة الصيد من الحثالة. يبدو أنّ دياغو يلتزم بهذه القاعدة أيضاً، فقد تنازل عن هذه المرأة برغم أنّه شمّ رائحة دمها.

ولكن ما الذي دفعه إلى القيام بذلك؟

عندما فرغت من امتصاص الجسد الثاني، شعرت بالبرودة في حنجرتي. لقد اختزنت في جسدي من الغذاء الآن مقداراً كافياً لبضعة أيام.

كان دياغو ينتظر ويدندن لحناً بصوتٍ خفيض. وعندما ألقيت بالجثة الجافّة على الأرض، التفت إليّ مبتسماً.

قلت: «شكراً».

هزّ برأسه، وأجاب: «لاحظت حاجتك إلى المزيد، فتذكّرت كم تكون الحاجة إلى الغذاء كبيرة وملحّة في البداية».

قلت: «هل تصبح هذه الأمور أسهل مع التقدّم في السن؟».

أجاب: «نعم، إلى حدٍّ معيّن».

وتبادلنا نظرة سريعة، ثمّ نظرنا معاً إلى الجثث الثلاث. وقال:

«تعالي لنرمي هذه الجثث في البحر».

انحنيت والتقطت جثة المرأة الشقراء وألقيتها على كتفي. وفيما كنتُ أهمّ لالتقاط الجثة الأخرى، سبقني دياغو إليها، بعد أن وضع جثة الرجل على ظهره.

وقال: «سأحملها».

تبعته إلى آخر الزقاق، ثمّ نزلنا تحت الجسر. لم يرنا أحد فأنوار السيارات لا تصل إلينا. فكّرت في غباء الناس، وقلّة انتباههم لما يجري حولهم؛ وفرحت لكوني مختلفة عنهم.

اخترقنا العتمة ووصلنا إلى أحد أرصفة المرفأ الخالية التي لا تستقبل أيّ بضائع في اللّيل. مشى دياغو إلى حافتها وقفز مع أحماله إلى البحر؛ فتبعته من غير تردّد.

شقّ دياغو طريقه نحو الأعماق بخفّة وسرعة كإحدى أسماك القرش. واستمرّ يسبر لجّة البحر المظلم إلى أن توقّف فجأةً أمام صخرةٍ ضخمة مكسوّةٍ بالطحالب وبالقمامة والفطريات البحرية. كنّا بحسب تقديري على عمق يتجاوز مئة قدم. أنزل دياغو الجثتين عنه، فتأرجحتا ببطء بين الرمال عند قدميه؛ إلا أنّه كان قد بدأ للتوّ بحفر ما تماسك من الرمال والحصى تحت قاعدة

الصخرة. وما هي إلا دقيقة، حتى وصلت يده إلى أحد النتوءات الكبيرة فأمسك به، ورفع الصخرة قليلاً من مكانها. ولكنّه في المقابل، وبفعل وزنها الضخم، غرق في الرمال حتى خصره.

نظر إليّ وأومأ برأسه.

فسبحت نحوه. وفي طريقي، التقطت الجثتين المرميتين بأصابعي. رميتُ الجثة التي كنت أحملها على كتفي في الحفرة السوداء تحت الصخرة أوّلاً، ثمّ أتبعتها بالثانية والثالثة. ثمّ قمت بالضغط قليلاً على الجثث برجلي لأمنعها من أن تطفو إلى الأعلى، وعدت قليلاً إلى الوراء. عندئذٍ ترك دياغو الصخرة لتسقط. تمايلت هذه الأخيرة قليلاً قبل أن ترسو وتستقرّ على القاعدة الجديدة غير المتساوية. بعد ذلك، تخلّص دياغو من الرمال التي كانت تشدّه، وسبح إلى أعلى حتى وصل إلى قمّة الصخرة ليضغط عليها نزولاً، ويطحن الأجساد تحتها.

ثمّ سبح قليلاً إلى الوراء ليتأكّد من نجاح عمله.

فقلت: «عظيم، لن تتمكّن هذه الجثث من أن تطفو على وجه الماء قطّ؛ ولن يقرأ رايلي أيّ شيءٍ بشأنها مطلقاً».

ضحك دياغو ورفع كفّه عالياً.

لكنّه فاتني في تلك اللّحظة أنّ ما كان يتوقّعه منّي، هو أن أضرب كفّي بكفّه احتفاءً بنجاح المهمّة. فتردّدت قليلاً قبل أن أسبح نحوه وأفعل ذلك. ثمّ عدت إلى حيث كنت، لكي أحافظ على بعض المسافة بين وبينه.

بعد ذلك، لاحظت على وجهه تعبيراً غريباً، وما لبث أن شقّ طريقه، بسرعة الرمح، صعوداً إلى السطح.

تبعته بالسرعة عينها، ولكنّي كنت مضطربة. وعندما وصلت، وجدته يقهقه ضاحكاً.

قلت: «ماذا؟».

في البدء، لم يستطع الإجابة عن سؤالي لشدّة إفراطه في الضحك. وأخيراً، قال: «أسوأ «كفّ انتصار» اختبرته في حياتي».

أجبته ببعض العصبية قائلة: «كيف كان لي أن أتأكّد أنّك لن تغتنم الفرصة لتهاجمني مثلاً».

شخر دياغو وقال: «لا يمكنني أن أقدم على مثل هذا الفعل».

فقلت بلهجة دفاعية: «ولكن... غيرك قد يفعل».

فقال بجديّة: «هذا صحيح»، ثمّ تابع: «هل ترغبين في صيدٍ جديد؟».

أجبت: «بالطبع».

فسبحنا قليلاً، وخرجنا من الماء لنجد أمامنا تحت أحد الجسور القديمة رجلين ينامان في العراء فوق فراشٍ من الجرائد، ويلتحفان أغطية قديمة وقذرة. لم يشعرا باقترابنا منهما، فقد كانا يغطّان في نومٍ عميق، ورائحة الكحول تنبعث منهما. ثمّ قمنا لاحقاً بدفنهما في عمق البحر أيضاً، وتحت صخرةٍ أخرى.

«ها إنّي ابتلعت ما يكفيني من الدماء لبضعة أسابيع». قال دياغو بعدما خرجنا من المياه مجدّداً.

تنهّدت، وقلت: «أمّا أنا، فسأشعر بالعطش بعد يومين فقط، وربّما يرسلني رايلي مع أصحاب راوول الأغبياء من جديد».

«يمكنني الذهاب معك إذا أردتِ». وأضاف دياغو: «رايلي يدعني أقوم بما أريد».

فكّرت في عرضه، وساورني بعض الشكّ. لكنّ دياغو ليس كالآخرين، فقد شعرت بأنّي لا أحتاج كثيراً لحماية ظهري منه.

وقلت: «أرحّب بالفكرة».

فأجاب دياغو مبتسماً: «جميل!».

فسألته: «ولكن، لماذا يتساهل معك رايلي إلى هذا الحدّ؟». كنت أريد أن أعرف طبيعة العلاقة التي تجمعهما. فالوقت الذي أمضيته مع دياغو هذه الليلة، جعلني لا أؤمن بانسجامه مع رايلي. فإنّ دياغو... يبدو لطيفاً، بينما الآخر، فلا شيء لديه من هذا القبيل. ربّما يكمن سرّ علاقتهما في عمليّة تجاذب الأضداد.

«يعلم رايلي أنّي على قدر من المسؤوليّة بالنسبة إلى موضوع محو آثار الجريمة وما شابه. ماذا لو نذهب في جولة جديدة؟».

شعرت بالفضول للتعرّف أكثر إلى تكتيكات هذا الشاب الغريب، فأجبت: «بالطبع».

وبقفزات معدودة وصل دياغو إلى الطريق المتوازية مع الشاطئ. تبعته وشممت رائحة بعض الآدميّين، ولكنّني علمت أنّهم لن يتمكّنوا من رؤيتنا، بسبب الظلام من ناحية، وسرعتنا التي تفوق سرعتهم إلى حدٍّ كبير.

اختار دياغو الانتقال فوق السطوح من جديد. وبعد لحظات عرفت أننا كنّا نقطع الخطّ الذي سلكناه في طريق الذهاب لأنّ رائحتنا لم تزل هناك.

وصلنا إلى مكان انطلاقنا الأساسي، حيث تركنا كيفن ورفيقه الأشقر.

«ما هذا؟ أمرٌ لا يصدّق!». قال دياغو مستنكراً.

كان كيفن ورفيقه قد تركا المكان منذ وقتٍ قصير على ما يبدو. وكان هناك سيارتان إضافيّتان مكوّمتان فوق السيارة الأولى، وأشلاء جثث كثيرة هنا وهناك. ولكن الشرطة لم تكن قد وصلت إلى المكان بعد - لا شكّ أنّ كل من شَهِدَ هذه المجزرة كان نصيبه الموت أيضاً.

«ساعديني لنرتّب الأمر». قال دياغو.

«حسناً».

نزلنا إلى الأرض، وبسرعة قام دياغو بتغيير وضع السيارات؛ مرتّباً إياها بشكلٍ يوحي بحادث اصطدام مروّع بينها، وليس بأنّ مارداً مرعباً قد حطّمها ورصفها فوق بعضها. بينما التقطت أنا الجثث المنثورة على جانبي الطريق، وألقيتها بين السيارات وتحتها.

وقلت: «يا له من حادث!».

ضحك دياغو، واستخرج ولاّعة من كيس نايلون محكم الإغلاق كان في جيبه وأشعل ثياب الضحايا. وبدوري، أخذت ولاّعتي وأضرمت النيران في فرش السيارات. كان رايلي قد أعاد لنا قبل انصرافنا إلى الصيد الولاّعات التي سبق واستحوذ عليها؛ لذلك لم يكن لدى كيفن عذراً لعدم استعمال ولاّعته. التهمت النيران الجثث بسرعة فائقة بسبب جفافها، وسمّ مصّاصي الدماء السريع الاحتراق الذي تلوّثت به.

«ابتعدي!». صرخ دياغو محذّراً، بعد أن فتح الغطاء الأمامي لإحدى السيارات، وفتح قنينة البنزين فيها. وبسرعة، قفزت فوق أقرب حائط، وتسلّقت إلى الطابق الأعلى لأتمكّن من مراقبة ما يجري. ابتعد دياغو بضع خطوات إلى الوراء، ثمّ أشعل عوداً من الكبريت ورماه بدقّة إلى داخل الفوهة الضيّقة. وفي اللحظة ذاتها، قفز وحطّ إلى جانبي.

هزّ الانفجار أرجاء الشارع، وأضيئت المصابيح الكهربائية هنا وهناك.

قلت: «أهنئك على العمل الناجح».

فأجاب: «شكراً لمساعدتك. ما رأيك أن نعود الآن إلى بيت رايلي؟».

قطّبت حاجبيّ. كنت أكره فكرة العودة إلى بيت رايلي قبل الفجر. لا أريد قضاء بقيّة الليل هناك، ولا رؤية وجه راوول العدائي، عدا عن سماع المشاجرات والمشاحنات التي لا

تنتهي. لا أرغب في تمضية بقيّة الليلة في صرير الأسنان، مختبئة خلف ظهر الذي يُدعى «فرِد المقزّز» حتى لا يراني، ولا يزعجني أحد. إضافةً إلى أنّي لم يعد لديّ كتب جديدة لكي أتسلّى في قراءتها.

فهم دياغو تعابير وجهي، وقال: «لسنا مجبرين على العودة الآن».

قلت: «أرغب في الحصول على بعض الكتب».

أجاب مبتسماً: «وأنا أرغب في الاستماع إلى بعض الموسيقى الجديدة. فلنذهب إذاً للتسوّق».

عدنا للقفز بسرعة فوق سطوح الأبنية، وقطعنا الشوارع العريضة مثل الرماح الطائرة، إلى أن وصلنا إلى أحد الأحياء السكنية الراقية. هناك، سرعان ما وصلنا إلى سلسلة من المخازن الكبرى التي تحتوي على مكتبة كبيرة. حطّينا على سطحها، وقمت بكسر قفل السطح، وهبطنا فاستطعنا الدخول بسهولة. نزلنا إلى المكتبة ولم تكن مجهّزة بجهاز إنذار سوى عند الأبواب والنوافذ.

توجّهت مباشرة إلى الكتب التي تبدأ عناوينها بحرف الهاء، وأخذت منها اثني عشر كتاباً قد تكون كافية ليومين أو ثلاثة. ورحتُ أفتش عن دياغو الذي كان قد ذهب إلى الخلف حيث المكتبة الموسيقية، فوجدته جالساً أمام إحدى الطاولات المعدّة لتناول القهوة، وكان مشغولاً في قراءة ما كتب على غلافات الأقراص المدمجة التي اختارها. فتريّثت قليلاً قبل أن أنضمّ إليه.

ساورني شعورٌ غريب من بقايا تجربة مألوفة ومزعجة معاً. تذكّرت جلوسي إلى طاولة مماثلة مع أحد الأشخاص. كنّا نتحدّث عن أمور عاديّة غير الموت والحياة، والعطش إلى الدماء؛ كان ذلك في حياة أخرى لا أعيها بوضوح.

كان ذلك الشخص رايلي؛ وتعود الصعوبة التي أواجهها لكي أتذكّر تلك الليلة إلى أسبابٍ عدّة.

ثمّ بادرني دياغو بسؤالٍ مفاجئ: «عجيبٌ أنّ نظري لم يقع عليك أبداً في البيت من قبل! أين تختبئين؟».

أجبته بابتسامةٍ ماكرة: «عادةً أتبع «فرِد المقزّز» أينما يذهب وأختبئ خلفه».

فسأل وقد بدا القرف على ملامح وجهه: «هل أنتِ جادّة؟ وكيف تتحمّلينه؟».

فأجبت: «وجدت أنّ فكرة الاختباء خلف فرِد هي الأفضل؛ فلا أحد يرغب في الاقتراب منه. على كلّ حال، الوجود خلفه أسهل من الوجود أمامه، ولقد تعوّدت ذلك».

هزّ دياغو برأسه، وما زال الاشمئزاز بادياً عليه، وقال: «أنتِ على حقّ، فهذه طريقة للبقاء على قيد الحياة».

ثمّ تابع: «هل تعلمين أنّ فرِد هو من المفضّلين لدى رايلي؟».

تعجّبت من قوله، وطلبت منه التوضيح. لا أحد في البيت كان يحبّ القرب من «فرِد المقزّز». وكنت الوحيدة التي تقترب منه بدافع حبّ البقاء فحسب.

انحنى دياغو نحوي، وكنت قد أَلِفت أساليبه الغريبة فلم أجفل منه. وقال هامساً كمن يريد أن يفضي سرّاً: «سبق وتنصتّ إلى مكالمة هاتفية بينه وبينها».

ارتجفت من خوفي.

لاحظ دياغو ذلك، وقال: «أتفهّم ما تشعرين به». طبيعيٌّ أن يقول ذلك، فكلّنا يخاف تلك **المرأة**. وتابع: «ولكّن ذلك حدث منذ بضعة أشهر. كان رايلي يخبرها عن فرِد بحماسة. وكان يردّد أنّ باستطاعة بعض مصّاصي الدماء القيام بأمور لا يمكن لغيرهم القيام بها... أمور تحتاجها تلك **المرأة**. إنّها تحتاج للمهارات الخاصّة...».

وشدّد على كلمة «خاصّة» ومطّ في لفظ حروفها، لينقل لي ما كان يجول في ذهنه من أفكار وشكوك.

فسألت: «أيّ نوع من المهارات الخاصّة؟».

وأجاب: «كلّ أنواعها... قراءة الأفكار، والتأثير على الآخرين، وكشف المجهول».

«إذهب عنّي، لا أصدّق».

«أنا جادّ في ما أقوله. فمثلاً، يُبعد فرِد الغير عنه وينفّرهم منه عن قصد. إنّه يؤثّر على أفكارنا ويخلق لدينا الشعور بالتقزّز منه».

قطّبت حاجبيّ، وسألت: «ولكن، ما الفائدة التي يجنيها من ذلك؟».

«البقاء حيّاً. . . على ما أعتقد. ألا تختبئين أنتِ بالذات وراءه لتحافظي على حياتك؟».

أومأت برأسي إيجاباً، وقلت: «بلى. ولكن هل ذكر رايلي أسماء أخرى؟» حاولت أن استرجع في ذهني أيّ تجارب غريبة اختبرتها مع سكان ذلك البيت، ولكنّي لم أجد أحداً متميّزاً عن الآخرين سوى فرِد. حتى «المهرّجين» المغفّلَين اللذين كانا يدّعيان البطولة هذا المساء، فإنّهما لا يمتلكان أيّ مهارات خاصّة أو غير عاديّة.

ثمّ تابع دياغو حديثه، وقال: «لقد تكلّم رايلي أيضاً عن راوول».

فقلت: «وما هي المواهب التي يمتلكها راوول؟ الغباء المنقطع النظير؟».

«هذا بالتأكيد». أجاب دياغو، ثمّ تابع: «يعتقد رايلي أن راوول لديه قدرة الجذب كالمغناطيس. فالآخرون ينجذبون إليه ويتبعونه».

فاعترضت قائلة: «لا يتبعه سوى المغفّلين».

«نعم، لقد ذكر رايلي هذا الأمر، قائلاً إنّه لا يملك القدرة على جذب. . . المروّضين من الجدد». ولفظ العبارة الأخيرة بالطريقة التي يتكلّم فيها رايلي بالضبط.

فقلت: «المروّضين؟».

«أعتقد أنّه كان يعني من هم مثلنا، أيّ الذين يمتلكون بعض القدرة على التفكير».

شعرت بميلٍ شديد إلى رفض هذه العبارة؛ أمّا تفسير دياغو للمقصود منها، فكان مقبولاً.

وأضاف محدّثي: «أظنّ أنّ هناك سبباً يدفع رايلي إلى وضع راوول وأتباعه في المقدّمة. أشعر بأنّ هناك أحداثاً قادمة علينا».

عند ذلك، شعرت بقشعريرة غريبة تخترق ظهري، فاستقمت في جلوسي، وسألت: «مثل ماذا؟».

«هل فكّرتِ لمرّةٍ لماذا يطلب منّا رايلي عدم لفت الأنظار؟».

تردّدت قليلاً قبل أن أجيبه. لم أكن أتوقّع أن أسمع من مساعد رايلي الأوّل مثل هذا السؤال، الذي يبدو وكأنّه تشكيك في صوابيّة كلام هذا الأخير، إلاّ إذا كان دياغو يقوم بمهمّة تجسّسية لمعرفة ما نخفيه من أفكار ونيّات. ولكنّ عيني دياغو كانتا توحيان بالثقة. وعلى كلّ حال، هل يهمّ رايلي حقّاً ما نفكّر به؟ ولعلّ ما سمعته من الآخرين حول دياغو لم يكن سوى مجرّد أقاويل عارية من الصحّة.

أجبته بصدق: «نعم، في الحقيقة كنت الآن أفكّر في هذا الموضوع».

عندئذٍ قال دياغو برهبة: «لسنا مصّاصي الدماء الوحيدين في العالم».

قلت: «أستنتج ذلك ممّا يقوله رايلي أحياناً. ولكن، لو كان هناك أعدادٌ كبيرة من نوعنا، لكان من الطبيعي أن نلاحظ ذلك. ألا ترى معي هذا الأمر؟».

هزّ دياغو رأسه بالموافقة وقال: «أشاركك الرأي. ولكنّني لا أفهم سبب إصرارها على صنع المزيد منّا؟».

قطّبت حاجبيّ، وقلت: «بالطبع، ليس لأنّ رايلي يحبّنا أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل...». ومجدّداً، توقّفت عن الكلام لأرى إذا كان سيعارضني في هذا القول. لكنّه لم يفعل ذلك، بل هزّ رأسه بالإيجاب، فتابعت: «حتّى إنّها لم تعرّفنا على نفسها. لماذا تصرّ على الحصول على المزيد منّا...؟ لم أفكّر في هذا الأمر من هذه الزاوية من قبل. أنتَ على حقّ في طرح هذا السؤال. تُرى، ما هو هدفهما الحقيقي؟».

رفع دياغو أحد حاجبيه، وتأمّل في وجهي، ثمّ أردف: «أتريدين معرفة ما أفكّر به؟».

هززتُ برأسي والقلق يساورني. ولكن، لم يكن دياغو مصدر قلقي هذه المرّة.

«كما أخبرتكِ. إنّها تريد حماية نفسها، وقد أوكلت مهمّة بناء خطّ الدفاع الأوّل إلى رايلي».

فكّرت بالأمر وعادت القشعريرة إلى ظهري. وسألت: «ولماذا لا يطلعوننا على الحقيقة. أليس من الأفضل أن نعلم حقيقة الأمور لكي نتنبّه لأيّ طارئ مثلاً؟».

ردّ موافقاً: «ما تقولينه يستند إلى المنطق».

نظرنا إلى بعضنا بصمتٍ خلال ثوانٍ بدت وكأنّها طويلة. لم يعد لديّ شيءٌ أقوله، وبدا أنّ ليس لديه أيّ شيءٍ يضيفه هو أيضاً.

ولكنّني قلت ساخرة: «لا أصدّق بأن يكون راوول صالحاً لأي شيء».

«لا أخالفك الرأي حول ذلك». أجاب دياغو ضاحكاً، وهو ينظر من النافذة ويقول: «لقد داهمنا الوقت. من الأفضل أن نعود قبل أن نحترق ونصبح رقائق مقرمشة».

فردّدت بهمسٍ أغنية الأطفال المعروفة مع شيءٍ من التصرّف. «... رماداً، رماداً، ونقع أرضاً».

ثمّ نهضت، وجمعت أغراضي.

توجّهنا قبل الانطلاق إلى مخزنٍ كبير إلى جانب المكتبة، فوجدنا أكياساً بلاستيكية كبيرة وحقيبتين للظهر. وضعتُ كتبي داخل بعض الأكياس وأحكمت إغلاقها.

بعد ذلك، عدنا أدراجنا كما جئنا متنقّلين بين السطوح ثمّ وصلنا إلى الشاطئ. كان لون السماء قد بدأ بالتحوّل إلى رماديّ. وقفزنا إلى البحر بعد أن مررنا بقرب حارسين لم يتنبّها إلى مرورنا؛ ولحسن حظهما أنّني كنتُ لا أشعر بالعطش. غطسنا في البحر وسبحنا في المياه الداكنة باتجاه بيت رايلي.

رحت أسبح بسرعة لأسبق طلوع الشمس. لا أتأخر عادةً في العودة إلى البيت كما فعلت الليلة. في الحقيقة كنت مصّاصة دماء مطيعة جدّاً. كنت أحترم القوانين ولا أتسبّب بالمتاعب؛ أرافق دوماً أقلّ أفراد المجموعة شعبيّةً، وأعود إلى البيت في وقتٍ مبكر.

لم تخطر ببالي فكرة الدخول في سباق سباحة مع دياغو. ولكن هذا الأخير كان يبذل أقصى جهده ليسبقني. وعندما أصبح متقدّماً عليّ ببضعة أمتار، نظر إلى الوراء ضاحكاً وسألني: «هل أنتِ عاجزة عن اللّحاق بي؟». ثمّ تابع تقدّمه بسرعة.

لم أهتمّ لما سمعت، ولا أعرف إن كنتُ في الأصل من النوع الذي يهوى الدخول في السباقات. لم يكن من السهل عليّ أن أتذكّر تلك التفاصيل غير المهمّة بالنسبة إليّ. ولكن ربّما كنتُ من ذلك النوع، لأنّي استجبت فوراً للتحدّي الذي أطلقه دياغو. كان هذا الأخير سبّاحاً ماهراً، لكنّي كنت الأقوى وخصوصاً بعد تناول الغذاء.

وناديته عندما مررت به قائلة: «سأراك لاحقاً».

غاب دياغو عن نظري في المياه الداكنة التي ورائي. لم أضيّع وقتي لأقدّر كم كانت المسافة التي تقدّمت بها عليه. فقد شقّيت طريقي كالسمكة في المحيط إلى أن شارفت على الجزيرة حيث يقع آخر منزلٍ كنّا قد انتقلنا إليه. كان المنزل السابق عبارة عن كوخٍ خشبي كبير، يقع في منتصف مكانٍ مجهول الاسم، على سفح أحد الجبال الصخرية بين الشلاّلات. بيتنا الحالي يشبه السابق من ناحية كونه منفرداً وبعيداً عن كلّ شيء. ويحتوي، مثل سابقه، على طابق سفلي كبير، إضافةً إلى أنّ أصحابه قد ماتوا منذ زمنٍ غير بعيد.

وصلت إلى الشاطئ، وغرزت أصابعي في أرضه التي كانت مزيجاً من الرمال والصخور، ثمّ قفزت عالياً وحطّيت فوق جذع

إحدى أشجار الصنوبر. وفي لحظة التقاطي لأحد أغصانها الطويلة، لكي أتأرجح وأستدير في الهواء قبل الهبوط إلى اليابسة، في تلك اللّحظة بالذات، سمعت الضجّة التي أحدثها دياغو عند وصوله إلى الشاطئ.

وما أن لامست قدماي الأرض، لفت انتباهي شيئان: ضوء النهار، واختفاء البيت.

لم يختفِ البيت كليّاً بالطبع، فقد بقيت منه بعض الأجزاء هنا وهناك. أمّا المساحة داخل بقايا الجدران فباتت خالية. كان سقف المنزل قد تحوّل إلى ركامٍ خشبي وسوّي مع الأرض.

لاحظت شروق الشمس يتقدّم بسرعة؛ فأغصان الصنوبر السود في اللّيل بدأت تكشف عن لونها الأخضر. وقريباً سيعمّ النور الشجرة بأكملها، وفي ذلك الوقت، أكون قد أصبحت في عداد الموتى.

هل يصحّ تسمية تلك النهاية موتاً؟ لدى التعرّض لنور الشمس تنتهي حياتنا الثانية فجأةً. نتحوّل فجأةً من أبطال أشدّاء إلى مجموعة مفرقعات تنفجر وتذوب. لا يمكنني التفكير في ذلك؛ ولكنّي أتوقّعه أن يكون مؤلماً جدّاً.

ليست هذه هي المرّة الأولى التي أشاهد فيها منزلنا يتحوّل إلى حطام. فغالباً ما تنتهي النزاعات العنيفة التي تدور في الطابق السفلي إلى التكسير والهدم والاحتراق. ولكنّها المرّة الأولى التي أرى فيها مشهد الخراب في ظلّ التهديد الذي تفرضه أشعة النهار.

كدتُ أختنق تحت وطأة الصدمة عندما وصل دياغو إلى جانبي.

فهمست: «ما رأيك أن نصنع حفرةً في التراب في ظلّ هذه الألواح الخشبيّة الباقية ونختبئ في داخلها؟ هل نستطيع حماية أنفسنا بهذه الطريقة. . .؟».

ولكنّه أجاب بصوتٍ هادئ جدّاً: «لا تخافي كثيراً يا بري. أعرف مكاناً آمناً، تعالي معي».

وعدتُ معه إلى البحر، برغم علمي بأنّ الاختباء تحت سطح الماء لن يحمينا من شعاع الشمس، ولكن ربّما يحمينا البلل من الاحتراق.

وعاد إلى فكرة السباق، لكنّه لم يكن يسابقني هذه المرّة بل يسابق الشمس.

وعندما وصلنا إلى نقطة معيّنة عند أطراف الجزيرة، غطس دياغو إلى الأعماق بقوّة. غطست وراءه، وفوجئت أنّه لم يتوجّه نزولاً إلى القعر الصخري، بل نحو مجموعة من الصخور حسبتها في البدء عاديّة، إلى أن شعرت بتيار مريح من الماء الدافئ يخرج من بينها.

أعجبت بدياغو لكونه يعرف مكاناً مثل هذا. طبعاً، ليس المكوث في كهفٍ تحت سطح المياه طيلة ساعات النهار أمراً سهلاً، ولكنّه أفضل من الاشتعال والتحوّل إلى رماد. وفكّرت بتقصيري، فقد كان من الأجدى أن أقوم بتحضير نفسي لمواجهة

الأزمات، كما فعل دياغو، عوضاً عن صرف الوقت في ترقّب فرص امتصاص الدماء فحسب.

استمرّ دياغو بالسباحة داخل ممرٍّ ضيّق بين الصخور. كان الظلام دامساً، ما يعني أنّ المكان آمن. وشعرتُ بأنّي لم أعد أقوى على السباحة فالممر كان يضيق أكثر فأكثر. ورحت أتسلّق تلك الصخور كما فعل دياغو. كنت أنتظر منه أن يتوقّف، لكنّه لم يفعل. وفجأةً، لاحظت أنّنا كنّا نتبع طريقاً صاعداً؛ وإذا بدياغو يصل إلى سطح الماء.

ووصلت وراءه بعد ثوانٍ معدودة.

كانت المغارة عبارة عن ثقب صغير، أو حفرةٍ بعرض سيارة من نوع «فولسفاكن» ولكن ليس بارتفاعها. كان المكان مفتوحاً من الخلف، فشعرت بنسمات من الهواء المنعش تدخل إلينا. ولاحظت كيف أنّ آثار أصابع دياغو كانت تبقى ظاهرة على الجدران البيض الكلسية.

فقلت: «إنّه مكانٌ جميل».

وأجاب: «. . . وأفضل من الجلوس خلف ظهر فرِد المقزّز».

«حتماً، لا مجال للنقاش حول هذا الموضوع. . . شكراً».

«عفواً».

كنّا ننظر إلى بعضنا في العتمة؛ رأيت وجهه جميلاً وهادئاً. وفكّرت أنّي لو كنت أقف الآن، وفي هذه المساحة الصغيرة قبالة أحد مصّاصي الدماء الآخرين، كيفن أو كريستي مثلاً، لكنتُ

سأموت من الرّعب. ولكنّ دياغو كان شديد الرصانة والهدوء، ولا يشبه الآخرين.

وفاجأني بالسؤال: «كم عمركِ؟».

فقلت: «ثلاثة أشهر. سبق وذكرت لك هذا».

«كلاّ. لم أقصد هذا. أقصد. . . كم **كان** عمرك؟ أظن أنّ هذه هي الطريقة الأفضل لطرح السؤال».

شعرت بالانزعاج لأنّه أراد التحدّث عن الحياة الإنسانية. لا أحد عادةً يريد التحدّث عنها، ولا التفكير بها؛ لكنّي لم أرد دفعه إلى التوقّف عن الكلام، فمجرّد تبادل الحديث كان شيئاً جديداً ومختلفاً بالنسبة إليّ. تردّدت قليلاً، ثمّ قلت: «أظن أنّي كنت في الخامسة عشرة؛ أو السادسة عشرة. لا أتذكّر إذا حصل التحوّل بعد عيد ميلادي. . .». حاولت أن أتذكّر تلك الفترة من الزمن، لكنّ الأسابيع الأخيرة من عمري الانساني، والتي قضيتها في الجوع، كانت شاحبة في ذاكرتي. شعرتُ بألمٍ غريب في رأسي عندما حاولت استعادة تلك الذكريات؛ فهززت رأسي وتخلّيت عن المحاولة؛ ثمّ سألت دياغو:

«وماذا عنك؟ كم كان عمركَ؟».

«كنتُ قد أصبحت في الثامنة عشرة. وعلى وشك. . .».

«على وشك ماذا؟».

فأجاب: «على وشك الخروج»، لكنّه لم يكمل الجملة. وتوقّفنا فجأةً عن الكلام. ثمّ قفز إلى موضوعٍ آخر:

«لقد نجحتِ في المحافظة على نفسك حتى الآن». وتابع

بعد أن مرّ بنظرة سريعة فوق ذراعيّ وساقيّ: «لقد تفاديت مصادر الأذى ونجحت في المحافظة على جميع أعضائك. . . وما زلتِ على قيد الحياة».

شخرت، ورفعت كمّ قميصي كاشفةً عن ذراعي اليسرى؛ فرأى الخطّ الرفيع المتعرّج حول أعلى ذراعي.

وقلت: «في الواقع، لقد انقطعت ذراعي مرّةً وساعدني رايلي في استرجاعها، قبل أن يحرقها ذلك الفظّ والأحمق الذي يُدعى جن».

ابتسم دياغو ومدّ يده مشيراً إلى ركبته اليمنى المغطّاة بقماش سرواله الجينز السميك، فتوقّعت أن لديه في ذلك المكان أثراً لجرحٍ كبير مثلي. وقال: «هذا أمر عاديّ لا يسلم منه أحد».

قلت متأوّهه: «أوش!».

فهزّ برأسه قائلاً: «ولكنّي جادّ في ما أقوله. إنّكِ مصّاصة دماء متميّزة».

«شكراً».

«ما رأيكِ في ما يحدث الآن؟».

«لا أدري عمّا تتحدّث؟».

قطّب حاجبيه قليلاً، وقال: «إنّي أتساءل ماذا تعني تصرّفات رايلي؟ لماذا يستمرّ في جرّ أعدادٍ كبيرة من الأولاد **إليها**، بغضّ النظر عن نوعيتهم. لا يهمّه إن جاء بمن هم مثلك، أو بمن كانوا مثل كيفن الغبي؟».

شعرت وكأنّ دياغو لا يعلم عن رايلي أكثر منّي.

وسألته: «ماذا تعني بعبارة «بمن هم مثلك»؟».

«أتوقّع أن يرغب رايلي في الحصول على أناسٍ من نوعك، أيّ أناس أذكياء، وليس من نوع الأشقياء والمتمرّدين على طراز الذين يأتي بهم راوول. إني متأكّد أنّكِ لم تشبهي العاهرات عندما كنتِ إنسانة».

تجاهلت ما قاله دياغو في نهاية تلك الجملة، ولاحظت أنّه كان ينتظر إجابتي ببرود تامّ، وكأنّه لم يتلفّظ بأيّ كلمة نافرة. تنشّقت نفساً عميقاً وحاولت استعادة الماضي.

«في الحقيقة، كنت على وشك أن أصبح واحدة من اللّواتي ذكرتهن... ليس بوسعي أن أتذكّر كثيراً، ولكنّي أذكر أنّي فكّرت خلال تلك الفترة الصعبة أنّ الجوع هو أصعب ما يمكن أن يقاسيه الإنسان على الأرض. لكنّي اكتشفت أن العطش أصعب!».

ضحك دياغو. ژيا لها من كلمات مؤثرة يمكنك تلحينها فتصبح أغنية...».

«وماذا عنك؟ لم تكن مثلنا جميعنا على ما أعتقد... مراهقاً ضائعاً».

«كنتُ ضائعاً بما يكفي». وتوقّف عن الكلام.

أمعنت النظر في وجهه، وانتظرت بصبر أجوبته على الأسئلة المحرجة التي طرحتها عليه، كما فعل هو منذ قليل.

تنهّد، ووصلتني رائحة أنفاسه؛ وكانت عطرة كرائحة أنفاس جميع من هم مثلنا، لكنّها تتميّز لدى دياغو بمسحةٍ آسرة من عطر القرفة والقرنفل.

«كنتُ أحاول التركيز على دراستي وتفادي الضياع بجميع أشكاله. وكنت على وشك الخروج من «الغيتو»، ذلك الحيّ العنصري المغلق والمشؤوم... أخطّط لإكمال دراستي الجامعية والارتقاء في حياتي. وفي ذات يوم، اتصل بي أحدهم من طراز راوول فظاظةً وعنفاً، وفرض عليّ الانتماء إلى مجموعته بالقوّة؛ وشعاره: «إمّا أن تنتمي إلى المجموعة، أو تموت». وبالطبع كنتُ أرفض الحلّين. فحرصت على التصرّف بحذر شديد والابتعاد عنهم، وبقيت حيّاً». ثمّ توقّف عن الكلام، وأغلق عينيه.

لكنّي استعجلته لمتابعة حديثه: «وبعد ذلك؟».

«لم يتصرّف أخي الصغير بحذر مثلي».

كنت على وشك أن أسأله: «هل انتمى أخوه إلى المجموعة أو مات؟». إلاّ أن ملامح وجهه الحزينة في تلك اللّحظة، أجابت عن سؤالي قبل أن أطرحه؛ فشعرت بنوع من الاضطراب، ولم أعلم كيف أواسيه. لم أستطع تفهّم حجم خسارته والحزن الذي لا يزال يرافقه حتى الآن. في الحقيقة، لم أترك في حياتي السابقة شيئاً مؤثراً يشدّني، وأشتاق إليه. وتساءلت إن كان ذلك هو السبب الذي يدفع دياغو إلى استعادة ذكرياته الماضية، فيما يحاول معظمنا الابتعاد عنها؟

لم يكن دياغو قد أوضح لي بعد كيف وصل رايلي إلى حياته. كنت أنتظر هذا الفصل من القصة، ولكنّي فضّلت التأنّي في تلك اللّحظة وعدم الضغط عليه لمتابعة الكلام.

ولكن ما لبث دياغو أن تابع: «عندما قُتل أخي، لم أستطع السيطرة على غضبي. سرقت مسدساً من أحد الأصدقاء، ولم أكن أتقن استعماله في ذلك الزمن كما الآن، وانطلقت لأنتقم من قاتل أخي وأرديته ميتاً، قبل أن يتمكّنوا من الامساك بي. تجمّع عليّ بقيّة أفراد العصابة في ممرٍّ ضيّق وحاصروني في إحدى الزوايا. وفجأةً ظهر رايلي بيني وبينهم. في تلك اللّحظة السوداء، لاحظت أنّه كان أشدّ بياضاً من جميع الناس الذين عرفتهم في حياتي. رماه أفراد العصابة بالرصاص حالاً، لكنّه لم يكترث لهم وكأنّ الرّصاصات الحارقة كانت مجرّد ذبابٍ مزعج. اقترب منّي، وفاجأني بسؤالٍ استغربته: «أتريد حياةً جديدة أيّها الصبي؟»».

ضحكتُ حينئذٍ، وأجبت: «هذا أفضل من السؤال الذي طرحه عليّ؛ (أتريدين أكل طبق هامبرغر يا فتاة؟)».

تذكّرت كيف بدا رايلي أمامي في تلك اللّيلة، على الرّغم من شحوب صورته في عينيّ في تلك اللّحظات لعدم قدرتي على التركيز من جهة، ولشدّة الرّعب الذي أصابني من جهة أخرى. إلاّ أنّي لاحظت أنّه أكثر الشباب الذين رأيتهم في حياتي جاذبيّةً. كان طويل القامة وأشقر اللّون؛ أما ملامح وجهه فبدت لي في غاية الكمال، لكنّي لم أستطع مشاهدة عيونه من وراء النظارة السوداء التي لم يرفعها قطّ. كان صوته لطيفاً وهادئاً. ثمّ ساورتني بعض الشكوك بأنّه كان يريد منّي شيئاً معيّناً لقاء وجبة الغذاء التي عرضها عليّ، وقلتُ في نفسي إنّي مستعدّة لإعطائه

ما يطلب ليس لكونه شديد الجاذبية، بل لأنّي لم أكن قد تناولت من الطعام خلال أسبوعين سوى الفتات الذي استخرجته من براميل القمامة. ولكنّي اكتشفت لاحقاً أنّه كان يسعى وراء شيءٍ آخر... ومختلف حقّاً.

ضحك دياغو لقصّة الهامبرغر، وسأل: «هل حقّاً كنتِ تشعرين بالجوع إلى هذه الدرجة؟».

«أكثر ممّا تتصوّر».

«ولماذا؟».

«لأنّي كنت غبيّة جدّاً، وهربت من البيت قبل أن أحصل على رخصة سوق. ولذلك، لم أستطع الحصول على أيّ وظيفة، ولم أكن بارعة بالسرقة أيضاً».

«لماذا الهروب؟».

تردّدت قبل الإجابة. لكنّ الذكريات الأليمة راحت تتوضّح أكثر في ذهني بعد أن ركّزت عليها.

فقال: «تكلّمي ولا تتردّدي. ألم أخبرك قصّتي بالتفصيل؟».

«بلى، لقد أخبرتني. لقد هربت من البيت بسبب أبي. كان يضربني دائماً. وربّما كان يفعل الشيء عينه مع أمّي قبل أن تهرب عندما كنت لا أزال صغيرة. عندما ازدادت درجة العنف الذي كان يمارسه ضدّي، فكّرت بالهرب قبل أن يقتلني. وأذكر أنه كان يقول لي مهدّداً بأنّي لو هربت، لن أجد ما أقتات به، وقد أموت جوعاً. وكان محقّاً من هذه الناحية. وهذا هو الأمر

الوحيد الذي كان محقّاً فيه – على الأقل في ما يختصّ بي. أحاول عدم التفكير في تلك الأمور كثيراً».

هزّ دياغو رأسه موافقاً: «استعادة تلك الذكريات القاتمة ليست سهلة... أعلم ذلك».

«إنّها أشبه بمن يريد النظر إلى شيءٍ ما، وعيناه مليئتان بالوحل».

فقال بإطراء: «طريقة بارعة في التعبير». ثمّ ضيّق عينيه، وأخذ يرفّ بجفنيه، ويحفهما بيديه، وهو ينظر إليّ.

وضحكنا معاً من جديد، وشعرت بغرابة الموقف.

وإذا بالكلام الذي قاله بعد ذلك، يعبّر بدقّة عن الأفكار التي كانت تساورني. قال دياغو: «لا أظنّ أنّي شعرت بالمرح بصحبة أحد البتّة، منذ معرفتي برايلي. أنتِ لطيفة، ولستِ مثل الآخرين. هل حاولتِ تبادل الحديث مع أحدهم في وقتٍ معيّن؟».

«كلاّ، لم أفعل».

فقال: «في الحقيقة، لم تخسري شيئاً. وما أريد قوله، هو أنّه كان بوسع رايلي أن ينعم بمستوى حياة أفضل، لو أحاط نفسه بمصّاصي دماء أذكياء. وإذا كان المطلوب حمايتها، أليس الأكثر ذكاءً هم الأجدر للقيام بهذه المهمّة؟».

فقلت مستنتجة: «إذاً ما يسعى وراءه رايلي ليس الذكاء، بل العدد».

زمّ دياغو شفتيه مفكّراً، وقال: «إنّه كمن يلعب الشطرنج، وليس بحاجة للفرسان ولا للبيادق».

فقلت بمرارة: «نحن إذاً مجرّد أحجار بالنسبة إليه».

ونظرنا طويلاً إلى بعضنا من جديد.

فقال دياغو: «لا أرغب في التفكير على هذا النحو».

«إذاً ماذا نفعل؟». طرحت السؤال مستعملةً «نون» الجمع نحن، وكأنّي قصدت أنّنا نؤلّف فريقاً واحداً.«

فكّر بسؤالي خلال لحظات وبدا غير مرتاح؛ فندمت على استعمال «نون» الجمع نحن. ولكنّه ما لبث أن قال: «ماذا نفعل عندما لا ندرك ما هي الخطّة؟».

إذاً، لم ينزعج من فكرة الفريق الواحد. شعرت بالارتياح، وهذا شعور لم أختبره منذ زمنٍ بعيد. فقلت: «أظنّ أنّ علينا أن نبقى متيقظين، ونحاول فهم ما يحدث».

هزّ رأسه بالإيجاب، وقال: «علينا أن نفكّر في كلّ ما قاله لنا رايلي من قبل، وفي كلّ ما فعله». ثمّ صمت مفكّراً، وتابع: «أتعلمين... لقد حاولت التكلّم إلى رايلي حول هذا الأمر مرّةً، لكنّه لم يظهر أيّ اهتمام. ونصحني أن أركّز على أمور أكثر أهميّة، مثل العطش. وهذا الأمر كان الأهمّ بالنسبة إليّ، في السابق طبعاً. ثمّ أخذ يرسلني إلى الصيد أكثر... فتوقّفت عن طرح الأسئلة».

انتهى دياغو من الكلام، وغرق في بحرٍ من الأفكار. رأيت عينيه شاردتين بينما كان يستعيد ذكرياته مع رايلي؛ فقلت في

نفسي إنّ دياغو بالنسبة إليّ هو الصديق الأوّل الذي وجدته في هذه الحياة الثانية، ولكن، ربّما لم أكن في المنزلة ذاتها بالنسبة إليه.

ثمّ عاد فجأةً، وحوّل انتباهه نحوي. وسأل: «إذاً ماذا نستنتج من خلال أقوال وتصرفات رايلي؟».

حاولت التركيز في العودة إلى الأشهر الثلاثة الأخيرة. ولكنّي قلت: «إنّه يخفي علينا أموراً كثيرة. كلّ ما يحدّثنا به يتعلّق بالمسائل البديهيّة».

أجاب دياغو: «علينا الاستماع لما يقوله بانتباهٍ أكثر».

جلسنا بصمت. كنت أفكر أنّ هناك أموراً كثيرة أجهلها، وتساءلت لماذا كنت أتغاضى عن جهلي في السابق؟ شعرت وكأن الحديث مع دياغو قد أزاح غشاء الجهل عن عينيّ. ولأوّل مرّة منذ ثلاثة أشهر، لا يشكّل امتصاص الدماء أوّل اهتماماتي.

استمرّ الصمت خلال دقائق.

لاحظت أنّ سواد الفتحة الذي شعرت من خلالها بالهواء المنعش يدخل إلى الكهف، كان قد أصبح الآن رمادياً. وكان لونه يقلّ كثافةً بشكلٍ تدريجي، ولكن ببطء شديد.

«لا تقلقي». بادرني دياغو عندما لاحظ نظراتي القلقة نحو تلك الفتحة. وتابع: «يصل بعض نور النهار الشاحب إلى هنا في الأيام المشمسة، ولكنّه غير مؤذٍ».

تقوقعت في مكاني، ورحت اقترب من الحفرة في قعر الكهف.

«إنّي جادّ في ما أقوله يا بري. أتيت إلى هنا في وقتٍ سابق خلال النهار. وسبق أن تكلّمت مع رايلي حول هذا الكهف، ووجوده في داخل الماء، فقال إنّها فكرة جيّدة للهروب من جوّ البيت المحتقن في معظم الأحيان. على كلّ حال، هل تظهر على جسدي آثار حريقٍ أو اشتعال؟».

تردّدت بالجواب، وفكّرت كم أنّ علاقة رايلي بدياغو تختلف عن علاقته بي. رفع دياغو حاجبيه وهو ينتظر الجواب. وجاء جوابي عفويّاً إلى حدٍّ كبير، فقلت: «لا... ولكن...».

وكاد دياغو أن يفقد صبره. وقال: «أنظري»، وزحف نحو تلك الفتحة وأخرج ذراعه منها، هل تأكّدت أنّه لم يلحق بي أيّ ضرر؟

هززت رأسي بالإيجاب مرّةً.

«لا تخافي، هل تودّين معرفة إلى أيّ مدى يمكنني الخروج؟». وفيما كان يتكلّم أخرج رأسه من الفتحة وراح يتسلّق النفق إلى الخارج، حتى اختفى عن نظري.

«لا تفعل ذلك يا دياغو، لم أعد خائفة، صدّقني».

راح يضحك، وسمعت صوته آتياً من مسافة بعيدة داخل النفق. أردت أن ألحق به وأشد بقدمه لأجبره على العودة، لكنّي كنت أتجمّد من الخوف. كيف سأذهب لأخلّص حياة شخص غريب على حساب حياتي. لكنّه يكاد يصبح الصديق الوحيد الذي أعرفه في حياتي؛ وبرغم أنّي تعرّفت إليه منذ ساعاتٍ معدودة، أشعر بصعوبة العودة إلى الوحدة.

وسمعته يناديني من عمق النفق: «لم يتغيّر بي أيّ شيء بعد، ولكن إسمعي... هل هذا...؟ أوه!».

«دياغو؟».

قفزت نحو النفق، وأخرجت رأسي من الفتحة. وإذا بوجهه أمامي، لا يبعد عن وجهي سوى بضعة سنتيمترات.

وقال: «بــو!».

عدت إلى الوراء مذعورة، خصوصاً أنّي لم أتعوّد الاقتراب منه إلى ذلك الحدّ.

وقلت بجفاء: «يا له من مزاحٍ ثقيل». وعدت أدراجي. ثمّ عاد هو أيضاً إلى داخل الكهف.

«عليكِ أن تنسي خوفك. لقد جرّبت بنفسي التعرّض إلى أشعة الشمس غير المباشرة، واكتشفت أنّها لا تؤذي».

«هل تعني أنّ بوسعي الجلوس تحت شجرة ظليلة من غير أن أصاب بالأذى».

صمت قليلاً، وكأنّه يتردّد عن الإفصاح بشيء معيّن؛ ثمّ قال بهدوء: «لقد فعلت ذلك مرّة».

نظرت إليه وانتظرت منه أن يضحك. فقد توقّعت أن ما قاله كان مجرّد نكتة.

لكنّه لم يضحك.

فقلت: «حذّرنا رايلي من...»، ولكنّي لم أكمل.

«نعم، أعرف ما قاله رايلي. ولكنْ، هناك احتمال أنّ رايلي لا يعرف بقدر ما يدّعي».

«ولكن ماذا عن الفتاة شيلي ورفيقها ستيف، وكذلك دوغ وآدم، ألم يختفوا جميعاً من الوجود لأنّهم تأخروا بالعودة إلى البيت؟ لقد شاهد رايلي رمادهم».

قطّب دياغو حاجبيه قلقاً.

وتابعت: «يعلم الجميع أنّ مصّاصي الدماء القدماء كانوا يقضون النهار في التوابيت خوفاً من أشعة الشمس. الكلّ يعرف ذلك. أليس كذلك يا دياغو؟».

«أنتِ على حقّ، كلّ القصص تخبرنا ذلك».

«وما الفائدة التي يجنيها رايلي من حبسنا جميعاً طوال النهار في قبوٍ لا يخترقه الضوء ويكاد أن يكون تابوتاً جماعيّاً، إضافةً إلى ما يقاسيه بسبب الاصطدامات وأعمال التخريب التي تنتج عن ذلك؟ لا تقل لي إنّ ذلك يسعده».

شعرت بأنّي قلت شيئاً لم يكن ينتظر سماعه منّي. فكان جالساً يتأملني مدهوشاً.

فسألت: «ماذا؟».

وأجاب بسؤالٍ آخر قائلاً: «وبحسب ما تقول القصص، ماذا يفعل مصّاصو الدماء في التوابيت طيلة النهار؟».

أجبت بكلامٍ متقطّع غير متأكّدة من الإجابة الصحيحة: «إيه... أعلم أنّهم ينامون. ولكنّهم... ولكنّنا لا نستطيع النوم. حسناً، ما تقوله القصص من هذه الناحية غير صحيح».

«تقول القصص إنّهم لا ينامون فحسب، بل يفقدون الوعي كليّاً. لا يستطيعون الاستيقاظ من النوم حتى لو مرّ فوقهم

إنسان، وأغرز في داخلهم عصاً حادّة الرأس. وهنا أيضاً، يحضرني سؤالٌ آخر: هل تظنين حقّاً أنّه يمكن لعصا مهما كانت حادّة الرأس أن تخترق جسدك؟».

هززت رأسي بالنفي. وأجبت: «لم أفكّر في هذا الأمر من قبل. لا يمكن لعصا عاديّة اختراق جسدي بالطبع، إلاّ إذا كانت عصا خاصّة جدّاً أو سحرية مثلاً».

شخر دياغو، وقال: «أرجوكِ... كوني منطقية».

أردفت: «بالطبع، لا أسمح لأحد الناس أن يقترب منّي ويحاول غرس عصاً حادّة في صدري... حتى ولو كانت «عصا مكنسة»».

ولكنّ دياغو، وما زال الرفض لذلك المنطق العقيم بادياً على وجهه، ركع على ركبتيه، ورفع يديه إلى فوق رأسه، وراح يحفر في الحجر الكلسي بأصابعه. وأخذ بعض فتات الحجر يقع على رأسه ويغزو شعره، لكنّه لم يكترث. فسألت:

«ماذا تفعل؟».

«أقوم باختبار معيّن».

تابع الحفر نحو الأعلى حتى بات باستطاعته الوقوف على قدميه.

فنهرته: «توقّف عن الحفر يا دياغو. ستصل إلى السطح قريباً وتتعرّض لأشعّة الشمس، وتنفجر».

«لا، لست في هذا الصدد. ولكن... ها... ها هي».

سمعت أصوات تكسيرٍ. ولكن، ولحسن الحظ، لم يخترق

الضوء تلك الحفرة العمودية العالية. وبعد لحظات، هبط دياغو عائداً فرأيت في يده أحد جذور الأشجار، وكان يابساً ومغطّى بكتل من التراب. أمّا طرفه المكسور فكان حادّاً جدّاً. رماه نحوي وقال: «خذي؛ أغرسيه في صدري».

أعدته له، وقلت: «دعك من هذا».

«إنّي جادّ في قولي». ورماه إليّ من جديد، فأعدته وكأنّنا نلعب بالكرة الطائرة.

ثمّ التقطه، وقال مغمغماً: «تؤمنين كثيراً بالخرافات!».

فتساءلت: «أليس وجودنا كمصّاصي الدماء البرهان الأكبر على حقيقة الخرافات؟».

«حسناً، سأحاول بنفسي».

وأمسك بالجذر الحادّ على مسافة بعيدة عن صدره، وكأنّه سيف يريد أن يقتل به نفسه.

فقلت خائفة: «لا تتسرّع في هذا المزاح».

«هذا ما أقصده، قصّة العصا القاتلة ليست أكثر جديّة من المزاح».

ولكنّه أطبق بذلك الجذر القاسي على صدره بقوّة تكفي لاختراق صخرة من الغرانيت. كدت أتجمّد رعباً، إلا أنّه انفجر ضاحكاً. وقال: «لو ترين شحوب وجهك يا بري... وكأنّه سيغمى عليك من الخوف».

راح يسقط قطع الخشب المكسّر من يده، ووقع ما تبقّى من الجذر على الأرض. وبحركة تلقائية حاول أن ينظّف قميصه

الذي بات قذراً ورثّاً بسبب كلّ ما فعله في الساعات الأخيرة من سباحةٍ وتسلّقٍ ونبشٍ في الرمال والكلس إلخ. ففكّرت أنّ علينا أن نسرق بعض الثياب الجديدة، عندما تتسنّى لنا الفرصة.

وقلت، ولا زلت غير مقتنعة على الرّغم من كلّ ما فعله دياغو أمامي: «ربّما يختلف الأمر عندما تأتي الضربة من يد الإنسان».

فأجاب ساخراً: «وهل هذا الاقتناع نابع من أنّه كان لديك قدرات خارقة عندما كنتِ إنسانة؟».

«لا أعلم يا دياغو. لست أنا من اخترع كلّ هذه القصص».

عندئذٍ هزّ رأسه، وقال بنبرةٍ جادّة: «هذه هي الحقيقة. كلّ تلك القصص ليست سوى اختراعات من صنع الخيال».

«وأيّ فائدة نجني من معرفة ذلك».

«لا أعلم. ولكن إذا أردنا الإجابة عن بعض الأسئلة الرئيسة، مثل سبب وجودنا، والأمر الذي يجعل رايلي يأخذنا إليها، وبهذه الأعداد الكبيرة، إذا أردنا الإجابة عن كلّ تلك الأسئلة فكلّ معرفة جديدة قد تفيدنا». وكان ينظر إليّ بجديّة تامّة.

لم يكن لديّ ما أقوله. ولكنّي كنت أفهم جيّداً ما يريد قوله.

ثمّ ارتاحت أسارير وجهه قليلاً، واستطرد: «التحدّث عن هذه الهموم والتساؤلات يساعدني على التركيز».

فقلت: «وأنا أيضاً. لا أدري لماذا لم تخطر في بالي هذه الأسئلة من قبل. إنّها أسئلة بديهيّة تنتظر أجوبة. والتفكير

المشترك في ذلك يساعدني على التركيز أيضاً».

ابتسم دياغو وقال: «إنّي سعيد حقّاً بلقائنا اللّيلة».

فرفعت حاجبيّ بنظرة تعجّب.

فقال ضاحكاً: «ألست سعيدة أيضاً بلقائنا؟». فحوّلت عينيّ عنه، غير متأكّدة من مدى جديّته في ما يقول.

«تعالي يا بري. كوني صديقتي إلى الأبد». وكان لا يزال يضحك، لكنّ ملامحه بدت لي صادقة ومتفائلة. ثمّ مدّ يده إليّ.

أطبقت كفّي على كفّه لأظهر له تضامني، لكنّي اكتشفت بعدما أبقى يدي في راحة كفّه، أنّه كان يرمي إلى شيءٍ أبعد من ذلك.

كنت لم ألمس بعد في حياتي الجديدة أيّ شخصٍ آخر. وها إنّي مثل من تردّد عن ملامسة شريط التيّار الكهربائي، ليكتشف بعد ذلك أنّ ملمسه لذيذ.

ارتجفت الابتسامة على وجهي، ولكنّي بادرت إلى القول: «إنّي مستعدّة للتعاون معك».

«ممتاز!». ها قد بدأنا مجموعة خاصّة بنا.

«خاصّة جدّاً!»، قلت مؤيّدة.

كانت يدي لا تزال في يده. لكنّه لم يكن ممسكاً بها جيّداً، كما أنّه لم يقم بمصافحتي. «يجب أن نتّفق على طريقة سريّة في المصافحة».

فقلت: «يجب أن تختار طريقة معيّنة».

أجاب: «الآن، يجتمع نادي الأصدقاء السرّيين بكامل أعضائه، وقرّر تأجيل اتخاذ القرار حول طريقة المصافحة السرّية إلى وقتٍ لاحقٍ. والموضوع الأوّل على جدول الأعمال هو رايلي، هل أُعطي معلومات غير صحيحة؟ هل هو كاذب؟».

كان يتكلّم وعيناه تنظران إلى عينيّ بصدق. لم تتغيّر نظراته أبداً عند لفظ اسم رايلي. بتّ متأكّدة أنّ علاقته برايلي عاديّة، إلاّ أنّ تحوّله إلى مصّاص دماء قبل الآخرين كان سبب ما يقال عن علاقته المتميّزة برايلي. ولهذا فإنّ ثقتي به أصبحت الآن ثابتة.

وقلت: «أضف هذه النقطة إلى جدول الأعمال: الخطّة. هل لدى رايلي خطّة معيّنة، وما هي؟».

«أحسنتِ هذا هو الهدف. يجب اكتشاف الخطّة؟ ولكن قبل أن نبدأ، يجب أن نقوم باختبار آخر».

«يساورني الخوف عندما أسمع هذه الكلمة».

«أليست الثقة، المبدأ الأوّل في شريعة النادي السرّي؟».

وقف في المكان الذي ارتفع سقفه منذ قليل، وتسلّق حائط النفق العمودي إلى أعلى، وراح يحفر صعوداً أكثر.

«أرجو أنّ ما تفتّش عنه ليس سوى بعض الجذور». قلتُ محذّرة، وعدتّ إلى الوراء في الاتجاه الذي يوصل إلى النفق المؤدّي إلى البحر.

سمعته ينادي: «ما تقوله القصص ليس حقيقيّاً يا بري». وكان يرتفع صاعداً إلى أعلى بينما يتساقط خليط التراب والرمل

والحجارة بغزارة إلى أرض الكهف. توقّعت أن يمتلئ المكان بهذا الخليط فيصبح ضيّقاً علينا، أو أن يمتلئ بأشعة الشمس فتتبدّد فائدته أيضاً.

لم أتوقّف عن التراجع نحو حافّة الكهف إلى أن غطست جزئيّاً في الماء. ووقفت مستعدّة لمواجهة أيّ طارئ. لن يستغرق غطسي إلى الأعماق أكثر من ثوانٍ معدودة. وبإمكاني البقاء يوماً كاملاً من غير تنفّس.

أخاف النيران كثيراً ولعلّ السبب يعود إلى ذكريات بعيدة أحملها من طفولتي وأدفنها داخل نفسي. أو أنّ شعوري بالاحتراق عندما تحوّلت إلى مصّاصة دماء كان كافياً بالنسبة إلى قدرتي على الاحتمال.

توقّعت أنّ دياغو كان يقترب من سطح الماء، فشعرت مجدّداً بالخوف من أن أفقد صديقي الجديد والوحيد.

فقلت همساً: «أرجوك يا دياغو أن تتوقّف». كنت لا أتوقّع أن يصغي إليّ، وانتظرت أن يجيبني بالضحك.

لكنّه أجابني: «ثقي بي يا بري».

انتظرت من دون القيام بأيّ حركة.

ثمّ سمعته يتمتم: «لقد أوشكت على الانتهاء...».

وبتوتّر كنت أترقّب الضوء، أو الشرارة، أو الانفجار، لكن دياغو هبط عائداً إلى أرض الكهف من دون أن يحدث أيّ شيء من هذا، وكان في يده جذرٌ غليظ يقارب طوله طول قامتي.

ونظر إليّ وكأنّه يقول: «قلت لكِ إنّي لا أتسرّع». وأشار إلى الجذر وقال: «سيساعدني هذا لأتصرّف بحرص».

أدخل الجذر الطويل في الحفرة الجديدة التي أعدّها في الأعلى، فوقع شلالٌ آخر من الرمل والحصى، إلا أنّ دياغو تحرّك مسرعاً، منتقلاً على ركبتيه، ليتفادى سقوطها على رأسه. وفجأةً نزل علينا شعاعٌ من الضوء أنار عتمة الكهف. كنت لا أزال متمسّكة بحافة الكهف أنظر إلى ما يجري بخوفٍ وانشداه، وعلى استعدادٍ تامّ للاختفاء السريع في عتمة البحر.

لم يخف دياغو من الضوء ولم يصرخ ألماً. كما أنّني لم ألحظ أيّ دخان أو رائحة احتراق. كان نور الكهف قد تضاعف مئة مرّة عمّا كان سابقاً، ولكن دياغو لم يزل بخير. كنت أراقبه بدقّة وهو يجلس على أرض الكهف ويتأمّل بعمود الضوء، من غير أن يأتي بحركة. لقد كان بخير إلاّ أنّ جلده بدا متغيّراً. وكأنّ انعكاساً غريباً وبرّاقاً للضوء كان يتلألأ على بشرته. فبدا مشعّاً إلى حدٍّ ما.

فكّرت في أن يكون ذلك اشتعالاً بطيئاً على جلده، لن يتنبّه إلى خطورته سوى متأخّراً...

ومرّت ثوانٍ ونحن نمعن النظر في ضوء النهار ولا نقوم بأيّ حركة.

وفجأةً، مدّ دياغو ذراعه نحو عمود الضوء.

قفزت بسرعة عظيمة نحوه، ودفعته إلى الوراء نحو حائط الكهف في اللّحظة الحاسمة قبل أن تصل يده إلى الشعاع.

لاحظت ضياءً برّاقاً يملأ المكان فجأةً، وشعرت بالحرارة تطال ساقي. في تلك اللّحظة عرفت أنّه لم يعد بإمكاني التحرّك في الكهف واحتجاز دياغو بعيداً عن النور.

وبصوتٍ متحشرج، صرخ دياغو: «بري!».

استدرت بحركة تلقائية سريعة، والتصقت بالحائط أنا أيضاً.

كنت أنتظر أن يبدأ إحساسي بألم الاحتراق، أو بشرارة تضرم النيران وتنشرها في جسدي، كما حدث في تلك الليلة عندما **قابلتها**. ولكنّ البريق المفاجئ كان قد اختفى، وعاد شعاع الضوء العمودي إلى مشهده الأوّل.

نظرت إلى وجه دياغو، فرأيت عينيه مفتوحتين كثيراً وفمه فاغراً. أمّا جموده الكلّي فقد أنذرني بالخطر. كنت خائفة من النظر إلى ساقي أو بالأحرى، إلى ما تبقّى منها. لقد تمكّنت في السابق من ترميم ذراعي بعد أن قُطعت، أما الاحتراق فلا ترميم بعده.

لا أشعر بالألم بعد.

«بري، هل شاهدتِ ذلك؟».

أشرت برأسي إيجاباً، وسارعت إلى السؤال: «قل لي عن مدى الأذى؟».

«الأذى؟».

وقلت بعد أن فرغ صبري: «أسألك عن ساقي، ماذا تبقّى منها؟».

«أرى أنّ ساقكِ سليمة».

نظرت نحو الأسفل بسرعة، فلاحظت أنّ ساقي كانت سليمة فعلاً. فهذه قدمي ما زالت كما كانت في السابق، وهذا كاحلي أيضاً، وهذه أصابع قدمي تتحرّك بشكلٍ عادي.

«هل تشعرين بالألم؟». سألني دياغو.

أجبت: «لا، ليس بعد».

«هل شاهدتِ ما حدث؟ الضياء؟».

أجبت: «بلى».

«أنظري إلى هذا المشهد الآن، ولا تحاولي إبعادي هذه المرّة، فقد لمستِ بالبرهان الأكيد أنّي على حقّ». وتقدّم من شعاع الشمس ومدّ كفّه المفتوحة نحوه. ولكني شعرت بصعوبة النظر إليه هذه المرّة أيضاً، برغم أن ساقي كانت لا تزال سليمة.

وفي اللّحظة التي لامس الضوء يده، تناثرت شعاعات من النور بألوان قوس القزح في جميع الأرجاء. فعمّ الضوء المكان ولفّني أيضاً، فارتجفت خوفاً وعجباً.

وتمتم دياغو: «يا له من مشهدٍ خيالي!». ودفع بذراعه أكثر نحو الضوء، فازدادت الأضواء أكثر. وعندما قلب يده لينظر إلى ظهرها راحت الشعاعات تتراقص وكأنّه يقلّب حبّة كريستال ضخمة في يده.

لم يكن دياغو يحترق، ولم يبدُ متألّماً.

نظرت إلى يده من قريب، فوجدت جلده وكأنّه مكسوٌّ بملايين المرايا الصغيرة جدّاً التي تعكس النور بقوّة تعادل أضعاف ما تعكسه المرايا العاديّة.

«تعالي إلى هنا يا بري! يجب أن تجرّبي أنتِ أيضاً».

دفعني فضولي إلى التجربة. فاقتربت منه، خصوصاً أنّي لم أجد سبباً لرفض طلبه.

ولكن، كان لا بدّ لي من طرح السؤال: «لا احتراق؟».

«مطلقاً». وتابع دياغو محاولاً الاستنتاج والشرح في الوقت عينه. «الضوء لا يحرقنا بل يتكسّر فوق جلدنا، وينعكس في جميع الاتجاهات. أمّا كلمة «الاحتراق» فربّما هي مجرّد تقصير في التعبير عمّا يجري حقّاً».

وبحركة بطيئة تذكّر بتصرّفات البشر، وبتردّد، مددت يدي نحو الشعاع الذي ما زال ينحدر من الفجوة العليا وكأنّه عامودٌ من ضوء. وما كادت يدي تلامس النور، حتى انتشرت الانعكاسات الضوئية الملوّنة في كلّ الأرجاء. وازداد نور الكهف أضعافاً، فتوقّعت أنّ ضوء النهار العادي في الخارج سيكون شاحباً أمامه. أخذني الإعجاب والحماسة، فمددت كلّ ذراعي إلى مصدر النور، وإذا بالضياء يزداد ضياءً.

وسألت بما يشبه الهمس: «أتظن أن رايلي يدرك هذه الحقيقة؟».

أجاب دياغو: «قد يكون مدركاً لها، وقد لا يكون؟».

«إن افترضنا أنّه يعرفها، فلماذا يخفيها عنّا؟». وتابعت: «هل تلاحظ يا دياغو أنّنا نبدو مثل كرات الضوء التي يزيّنون بها العلب اللّيلية».

ضحك دياغو، ثمّ أردف: «أرى الآن من أين أتت خرافة الاحتراق. تصوّري أنّك إنسانة عاديّة، ويقع نظرك على أحد مصّاصي الدماء في وضح النهار، فستعتقدين أنّه يحترق».

«إن لم يتوقّف ليكلّمني، فسأعتقد أنّه كذلك».

واندفع دياغو بحماسة: «هذا لا يصدّق!». ورسم بإحدى أصابعه خطّاً في راحة يدي البراقة. ثمّ قفز على قدميه إلى وسط بقعة الضوء، فعجّ المكان بالأنوار.

«تعالي، لنخرج من هنا». ووقف وباشر في تسلّق النفق الذي حفره صعوداً نحو الفوهة العليا، وإلى السطح.

لا يظنّ أحدٌ أنّي كنت قد تخطّيت الخوف كليّاً في تلك اللّحظة. كنت لا أزال قلقة من تسلّق النفق وراء دياغو. ولكن، وحتى لا ينعتني بالجبن، تبعته حالاً إلى الأعلى. نجح رايلي حقّاً في إقناعنا بخطورة التعرّض لأشعّة الشمس؛ وصدّقته، لأنّي ربطت ذلك في ذهني بشعور الاحتراق المؤلم الذي أصابني عندما تحوّلت إلى مصّاصة دماء، فبتّ أصاب برعبٍ تلقائي وغريزي أمام فكرة النار.

خرج دياغو من الثقب، وتبعته بعد أقلّ من ثانية. وقفنا فوق بقعة من العشب الأخضر غير بعيدة عن الأشجار التي تكسو أرض الجزيرة. فتراقصت الأنوار الملوّنة على العشب، وفي الفضاء الذي يلفّنا فبدا المكان ساحراً.

لم أستطع إخفاء ما شعرت به، فتمتمت: «واو!».

ضحك دياغو، فتأمّلت في وجهه الجميل والمشرق؛ إلاّ أنّ شعوراً بالغضب والأسى انتابني فجأةً، عندما فكّرت بالكذبة الكبيرة التي كنّا ضحيتها.

تحوّلت ضحكة صديقي إلى ظلّ ابتسامة لطيفة، وكانت عيناه لا تزالان مشدوهتين بالجمال. رفع كفّه ولامس بها خدّي، كما فعل في الكهف عندما لامس راحة كفّي، وكأنّه كان يحاول فهم سرّ ذلك الألق.

قال ويده لا تزال على خدّي: «تبدين جميلة جدّاً!».

لا أذكر كم وقفنا أمام بعضنا في حالةٍ من الذهول التامّ، فيما كنّا نشعّ نوراً كمصباحين كهربائيين. لحسن الحظ أن المكان كان خالياً من القوارب ومن الناس أيضاً. لم أكن عطشى إلى الدماء، وردّة فعل أيّ كان أمام مشهدنا الغريب، كان سيعكّر جمال تلك الساعة.

ولكنّ غيمةً كبيرة مرّت في السماء وحجبت نور الشمس، فعادت وجوهنا إلى مظهرها المعتاد إلاّ قليلاً، عندئذٍ شعرت بالقدرة على التفكير في الخطوات التالية. وعرفت أنّ وجه دياغو الماثل أمامي في تلك اللّحظات كان قد تغيّر بالنسبة لي إلى الأبد.

«ماذا نفعل الآن؟ هل نفترض أنّ رايلي يجهل كلّ شيء عن هذا الموضوع؟ هل نطلعه على هذه الحقيقة؟».

تنهّد دياغو وأنزل يده عن خدّي، وقال: «لا أدري، تعالي نفكّر في الأمر بينما نحاول إيجادهم».

«علينا توخّي الحذر. لحاقنا بهم خلال النهار يعرّضنا لأعين الناس بشكلٍ كبير».

وضحك قائلاً: «تعالي نتصرّف مثل عصابة الضفادع الذكيّة «نينجا» التي كنّا نشاهدها في أفلام الصور المتحرّكة».

أجبت: «موافقة جداً. مجموعة نينجا السرّية... عظيم!».

لم يطل بنا الأمر حتى اكتشفنا النقطة التي انطلق منها الجميع عندما تركوا الجزيرة، ولكن يبقى أن نعرف المكان الذي ذهبوا إليه، ولم يكن ذلك الأمر سهلاً. ناقشنا فكرة الانفصال والتفتيش في أماكن متفرّقة، ولكنّنا لم نأخذ بها؛ إذ سيتعذّر علينا إذ ذاك التواصل، كما أنّي لم أرغب في الابتعاد عنه، وعرفت أنّه يشاركني الشعور عينه. قبل أن نلتقي، كنّا نحن الاثنين نعاني من الوحدة. أما الآن فنشعر أنّنا لا نريد أن نضيّع دقيقة واحدة من هذه الأوقات الحلوة التي نقضيها معاً.

كانت هناك احتمالات عدّة بالنسبة إلى المكان الذي توجّهوا إليه. هل ذهبوا إلى جزيرة أخرى، أو عادوا إلى ضواحي مدينة سياتل؟ أو أنّهم ذهبوا شمالاً نحو كندا. كان رايلي دائماً على استعداد تامّ للانتقال إلى مكانٍ آخر بعد حصول أعمال الهدم والحريق في البيت. وكأنّ لديه خطّة حاضرة دوماً بالنسبة إلى مكان السكن التالي، لكنّه لم يتعوّد إطلاعنا على تلك الخطط.

قضينا وقتاً طويلاً في حركات متتالية من الغطس تحت في الماء ثمّ الخروج منه. وزاد عدد القوارب والناس مع تقدّم

ساعات النهار، ممّا أخّر تقدمنا في البحث. لكنّنا، عوضاً عن الشعور بالتعب والانزعاج، كنا نستمتع بالمغامرة إلى أقصى الحدود.

يا له من نهارٍ غريب... فعوضاً عن الاختباء في العتمة طوال النهار، وتحمّل كلّ ما يصدر عن تلك المجموعة من الأغبياء من إزعاج، كنت ألعب دور ضفادع نينجا مع صديقي الوحيد، والذي قد يكون أكثر من صديق. تمازجت ضحكاتنا فيما كنّا نركض كالأطفال لنتفيّأ تحت ظلال الشجر، ونتراشق بالحصى التي كانت تلمع بين أيدينا وفي الهواء كأنها نجوم.

شارفت الشمس على الغروب، فساورني فجأةً شعورٌ بالحزن. وتساءلت في نفسي: «كيف سيتصرّف رايلي؟ هل سيفتّش عنّا أو أنّه سيعتبرنا في عداد الموتى؟ هل يعلم الحقيقة؟».

رحنا نفتّش بسرعةٍ أكبر. كنّا قد انتهينا من التفتيش في الجزر القريبة، وانتقلنا إلى المناطق البرّية الأبعد، عندما وجدت رائحتهم. لم تمضِ ثوانٍ حتى بدأنا الرّكض في اتجاهم. بعد التقاط رائحة مصّاصي الدماء تصبح عمليّة إيجادهم سهلة جدّاً، بسهولة إيجاد قطيع من الفيلة فوق تلّةٍ من الثلج.

تبادلنا الأفكار حول ما يجب فعله بأسلوبٍ أكثر جديّة الآن، فنحن في طريقنا لمواجهة رايلي.

وقلت: «لا أظنّ أنّ من الحكمة أن نقول الحقيقة لرايلي الآن. لنقل له إنّنا قضينا النهار في كهفك». وشعرت بالقلق

يوسوس في رأسي. فأضفت: «لنقل له إنّ الماء كان يملأ كهفك ولم يكن هناك مجالٌ لتبادل الأحاديث بيننا».

أخذ دياغو يدي، وسألني بهدوء: «أتخافين من غضب رايلي إلى هذه الدرجة، أتظنين أنّه وغدٌ وسيّئ الأخلاق؟».

فقلت: «لا أعلم، ولكنّي أفضّل افتراض ذلك، والعمل على أساسه من باب الاحتياط». وبعد تردّدٍ، قلت: «هل ترفض اعتباره سيّئاً؟».

«كلاّ»، وأضاف دياغو: «إنه تقريباً... صديقي، ولكنّي... لا أريد التفكير...». وضغط على أصابعي بحنان، ولم يكمل كلامه.

ضغطتُ على أصابعه بدوري، وقلت: «ربّما يتمتّع بأخلاق حسنة ولكنّ الاحتياط من جانبنا لن تغيّر في أخلاقه».

«أنتِ على حقّ. سنخبره عن اختبائنا في الكهف، ولكنّنا لن نقول له عن اكتشافنا... سأخبره لاحقاً. الأفضل أن أخبره خلال النهار عندئذٍ يمكنني أن أبرهن مباشرةً ما أقوله. وفي حال أنّه كان مدركاً لهذه الحقيقة، لا بدّ أنّ لديه سبباً مقبولاً لإخفائها. سأتحدّث معه حول هذا الموضوع على انفراد، ومن الأفضل عند الفجر، عندما يكون عائداً من... من المكان الذي يتردّد إليه عادةً».

لاحظت أنّ دياغو استعمل الضمير «أنا» في معظم حديثه، ونادراً ما قال «نحن». ولكنّي، في الحقيقة، لا يهمّني تثقيف

رايلي حول أيّ موضوع، ولم تكن ثقتي قويّة به كما كانت ثقة دياغو.

واندفعت قائلة لأعيد أجواء المرح بيننا: «اجتياح النينجا سوف يتمّ عند الفجر!». فضحك كثيراً. ورحنا نتبادل الأحاديث المرحة بينما كنّا مستمرّين في تعقّب قطيع مصّاصي الدماء الذي ننتمي إليه. كنتُ أشعر بأنّ أفكاراً جديّة تدور في رأسه برغم المزاح الظاهر؛ وعلى غراره، لم يتراجع نشاطي الفكري طوال الطريق.

ازدادت مخاوفي بشكل كبير؛ كنّا نركض بسرعة ونتبع الرائحة التي نعرفها جيّداً، ولكنّ الطريق أمامنا بدت وكأنّها لن تنتهي. كنّا قد ابتعدنا جدّاً عن الشاطئ، وتسلّقنا الجبال القريبة، ووصلنا إلى مناطق جديدة، فحملنا ذلك على الاستغراب.

حتّى الآن، كان بين جميع البيوت التي عشنا فيها عدد من السمات المشتركة؛ لا فرق إن وُجدت في الجزيرة أو فوق سفح الجبل أو في زاوية مزرعةٍ كبيرة. وهذه السمات هي: أن يكون مالك البيت متوفى، وأن يكون البيت بعيداً عن المناطق السكنية، إضافةً إلى الشرط الأساسي، وهو أن يكون مشرفاً على منطقة سياتل. فكلّ البيوت التي نسكنها تحيط بسياتل وكأنّها أقمار اصطناعية تدور حولها. فسياتل هي دوماً الهدف.

يبدو وكأنّ خطأً معيّناً قد حدث هذه المرّة؛ فقد أصبحنا خارج مدار المدينة الآن. ربّما ليس من الضروري أن يدعو هذا الأمر للقلق الشديد، فكثير من الأمور تغيّرت اليوم. جميع

الأمور التي كنت أتقبلها كواقع بديهي، لم تعد تستند إلى الحقيقة. لم أكن قادرة على تقبّل مزيد من المتغيّرات في ذلك اليوم. ولكن، لماذا قام رايلي باختيارٍ غير عادي في هذا الوقت؟

وسمعت دياغو يتمتم بنبرةٍ لم تخلُ من الغضب: «مضحكٌ انتقالهم إلى هذا المكان البعيد».

فقلت: «أو إنّه مرعبٌ!؟».

شدّ على يدي، وقال: «بإمكان مجموعة «نينجا» التعامل مع أيّ شيء!».

«هل اتخذت قرارك بشأن المصافحة السرّية؟».

«لا زلت أفكّر بالأمر. أعدك بالنتيجة قريباً».

شعرت بأنّ هناك أمراً مخيفاً لا أدرك ما هو، ولكنّه يقلقني. شيءٌ موجود ولكنّي لا أراه...

وبعد أن قطعنا نحو ستين ميلاً إلى الغرب، خارج المحيط الذي نتقيّد به عادةً، وجدنا البيت. من غير الممكن أن نخطئه بسبب الموسيقى الصاخبة المنبعثة منه، وضجّة ألعاب الفيديو، وأصوات الزجر والهدر التي لا تتغيّر. إنّهم جماعتنا.

سحبت يدي من يد دياغو، فنظر إليّ.

فقلت له بجدّ يخالطه المزاح: «إسمع، أنا لا أعرفك، لم نستطع التفوّه بأيّ كلمة داخل الكهف الغارق في الماء. لا أعرف حقّاً إن كنت نينجا أو مصّاص دماء...».

ثمّ ضحك وقال: «وأنتِ أيضاً أيتها الغريبة، أنا لا أعرفك». وتابع بتمتمة سريعة: «تحافظين على سلوكك العادي.

تتصرّفين اليوم كما تصرّفت البارحة. سنلتقي غداً مساءً. ربّما بتنا نفهم الأمور الآن بشكلٍ أوضح. ولنراقب بدقّةٍ أكبر ما يجري».

«أشعر وكأنّنا بدأنا في تنفيذ الخطّة. الكلمة السرّية هي (موم)».

اقترب منّي وقبّلني... قبلةً واحدة طبعها على شفتيّ، فانتشرت ذبذباتها اللذّيذة في كلّ أنحاء جسدي. وبعد ذلك، قال: «لنفعل هذا!». وباشر في تمثيل دوره، عندما تقدّم بخطواتٍ كبيرة إلى الأمام، وانحدر إلى أسفل الدرب باتجاه مصدر الضجيج المزعج من غير أن ينظر إلى ورائه.

فوجئت بما فعل، لكنّي تبعته بعد أن قطع المسافة التي أحرص عليها عادةً بيني وبين أيّ مصّاص دماء آخر.

كان البيت على طراز كوخٍ خشبي كبير، بُني داخل غابة من أشجار الصنوبر، ولم يكن هناك ما يشير إلى وجود بيوتٍ أخرى حوله. كانت نوافذه السود المغلقة توحي وكأنّه مهجور، أمّا أطرها العتيقة فكانت تهتز بشدّة تحت صخب الأصوات المتسرّبة من كلّ مكان.

دخل دياغو أوّلاً، وحاولت أن أسير وراءه بالطريقة التي أسير بها عادةً وراء كيفن أو راوول، أيّ بتردّد وحذر. عندما وجد رفيقي الدرج نزل إلى الطابق السفلي، وما لبث أن بادر الموجودين بنبرةٍ واثقة:

«ما بالكم... هل المقصود أن لا أجد طريق العودة إليكم؟».

وسمعت كيفن يعلن ببرودٍ ظاهر: «ها إنّ دياغو ما زال على قيد الحياة».

وأجابه دياغو: «لا شكر لك على ذلك».

وتسلّلت إلى داخل القبو الكبير المظلم برغم النور المنبعث من شاشات التلفزيون العديدة في أرجائه. رأيت فرِد المقزّز من بعيد جالساً على كنبة واسعة بمفرده، فتوجّهت فوراً نحوه، وخطر ببالي أنّ النفور الطبيعي من رائحة فرِد الذي سيظهر على وجهي، سيطغى على مظاهر القلق التي كانت تعتريني. سرت إلى خلف الكنبة، وجلست على الأرض، ولاحظت كما دائماً، أنّ الجلوس وراءه يساعد في التخفيف من حدّة رائحته المقزّزة. وربّما كنت قد تعوّدت عليها.

كان الوقت قد قارب منتصف اللّيل، ومعظم مصّاصي الدماء خارج البيت. أما من كان هناك، فلون عينيه أحمر فاقع، ما يدلّ على أنه ابتلع قدراً كبيراً من الغذاء في تلك اللّيلة أو سابقتها، مثلي.

وسمعت دياغو يقول لكيفن: «صرفت وقتاً طويلاً وأنا أحاول تنظيف آثار ما فعلته. وكان الفجر قد طلع تقريباً عندما وصلت أمام بقايا البيت، فبتّ مضطرّاً للمكوث داخل كهفٍ تحت الماء طيلة النهار».

«إذهب واخبر رايلي بذلك. لا أهتمّ بما تقوله».

وسمعت صوتاً آخر يقول: «أرى أنّ الفتاة الصغيرة قد نجت أيضاً...». وارتعدت عندما اكتشفت أنّه صوت راوول، ولكنّي

عدت وارتحت قليلاً لأنّه لا يعرف اسمي. وبالطبع، كنت أتمنّى لو لم يتنبّه لعودتي أبداً.

وأجاب دياغو: «نعم، لقد تبعتني».

فسأل راوول بسخرية: «وهل أنت المسيح المخلّص؟».

«لا أظنّ أنّ على الواحد منّا التصرّف برعونة وغباء لينال رضا المجموعة».

كنت أتمنّى ألاّ يستفزّ دياغو راوول، وأن يعود رايلي في أقرب وقت. لا أحد ينجح في تهدئة راوول، ولو قليلاً، سوى رايلي.

لا أدري إلى أين يذهب رايلي عادةً، ولكن، ربّما ذهب ليحضر مزيداً من الأشقياء الجدد إليها.

«إنّك تثير عجبي يا دياغو؛ هل تظنّ أن رايلي سيغضب إذا قتلتك. لا أظنّ ذلك. على كلّ حال، رايلي لا يعرف أنّك لا زلت حيّاً».

سمعت ضجّة تنذر بأنّ أصدقاء راوول يتحرّكون استعداداً لمساندته ضدّ دياغو. وهناك من فضّل الخروج تجنّباً للمعركة. كنت أفكّر بسرعة ولكنّي فضّلت البقاء في مكاني. لن أدع دياغو يدافع عن نفسه وحيداً، ولكنّي لا أريد أن أتحرّك قبل الأوان، فينكشف الغطاء عنّا باكراً من دون جدوى. وتمنّيت أن يكون سبب بقاء دياغو حيّاً عائداً إلى تفوّقه في فنون القتال. شخصيّاً، لا أمتلك أيّ موهبة من ذلك النوع. كان في ذلك القبو ثلاثة من

أتباع راوول؛ وبحسب توقّعي هناك آخرون ممّن يرغبون في مساندة راوول لكسب ودّه. ورحت أفكّر إن كان سيحالفنا الحظّ ويعود رايلي إلى البيت قبل أن يتسنّى لهم الوقت الكافي لإحراقنا.

وقال دياغو بهدوء: «يبدو لي أنّك تخاف من مواجهتي وحيداً. لا عجب!».

وأجاب راوول باعتداد: «ولماذا أواجهك وحيداً؟ هل نحن نمثّل فيلماً سينمائيّاً أو ما شابه. إعلم أنّي لا أريد أن أضربك وحسب، بل إنهاء حياتك كليّاً».

كنت أعدّ نفسي للوثوب إلى أرض المعركة في أيّ لحظة.

لم يتوقّف راوول عن الكلام، وكأنّه أعجب بجمال صوته.

وقال: «لا، لا نحتاج للجميع لإنهائك. سيقضي هذان المقاتلان على تلك الصغيرة المجهولة الاسم. إنّها الشاهد على عودتك غير المرغوب بها».

شعرت بجسدي يتصلّب كالجليد، فحاولت أن أليّنه لكي أستعيد قوّتي الدفاعية، التي كنت أشكّ بفعاليتها على كلّ حال.

عندئذٍ، اجتاحني شعورٌ آخر لم أكن أنتظره البتة. شعورٌ بالتقزّز والقرف دفعني بعيداً عن فرِد، فقفزت إلى وسط القبو وأنا أتقيّأ.

لم أكن الوحيدة التي أبدت ردّة الفعل هذه. إذ تعالت زمجرات تنمّ عن القرف الشديد، وعمّت أصوات التقيّؤ. رأيت بعضهم يعود إلى الوراء ويلتصق بالحائط ويشدّ عنقه إلى أعلى،

وكأنّه كذلك سيهرب من الشعور بالقرف؛ وبين هؤلاء، كان هناك عدد من مناصري راوول.

وسمعت زمجرات راوول التي أعرفها، ولكنّها ما لبثت أن ابتعدت عن مسمعي؛ فقد ترك هذا الأخير القبو وتسلّق الدرج إلى الطابق العلوي، وتبعه نحو نصف عدد مصّاصي الدماء الذين كانوا في القبو.

كنت عاجزة عن القيام بأيّ حركة، وأشعر بالرغبة في الابتعاد عن ذلك المكان كما فعل الباقون، فعرفت إذ ذاك أنّ سبب عجزي كان قربي من فرِد، وأنّ فرِد هو السبب في ما يحدث. ولكن وبرغم كلّ شيء، عرفت أنّ فرِد قد أنقذ حياتي. فتساءلت: «لماذا؟».

تبدّد شعوري بالتقزّز تدريجيّاً، فتقدّمت نحو حافة الكنبة، وراقبت نتيجة ما حدث. جميع أتباع راوول كانوا قد رحلوا، أما دياغو فكان لا يزال جالساً في مكانه. أمّا مصّاصو الدماء الذين لم يغادروا المكان، فكانوا يرمقون فرِد بحذر وتوتّر. نظرت بدوري إلى رأس فرِد من الوراء، وكدتُ أعود للتقيّؤ من جديد لو لم أحوّل نظري بسرعة عنه.

وعلا صوتٌ فرِد ليقول: «أخفضوا أنظاركم». كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها صوته الجهوري. شعر الجميع بأنّ شعور التقيّؤ يعود، فأشاحوا بنظرهم بعيداً عنه.

يبدو أنّ هدف فرِد كان المحافظة على راحته وهدوئه، ولكن مهما كان هدفه فقد كان السبب في بقائي حيّة. توقّعت أن

يتلهّى راوول بمشاكسات جديدة مع أحدهم، فيصبّ جام غضبه عليه حتى يحين موعد عودة رايلي المعتادة إلى البيت عند نهاية الليل. عندما يعود رايلي، سيعلم أنّ دياغو اختبأ في كهفه خلال النهار وما زال حيّاً. ولن يكون لدى راوول عذرٌ للاعتداء علينا.

هذا ما قد يحدث في أفضل الأحوال. وقد نجد أنا ودياغو لاحقاً حلاً يجنّبنا شرّ راوول.

كنت أشعر أنّ هناك حلاً بديهيّاً مفتوحاً أمامي، ولكنّي لا أراه بوضوح. وفيما كنت أحاول إيجاده، سمعت من يقول: «عذراً».

كان الصوت خفيضاً جدّاً وعميقاً وعرفت أنّ مصدره فرِد. كان الاعتذار موجّهاً لي.

نظرت إليه ولم أشعر بالتقزّز. كنت أراه من الوراء، فلاحظت لأوّل مرّة أنّ شعره كثيفٌ وأشقر، وذا تموّجات عريضة. كان رايلي على حقّ عندما قال إنّ فرِد يملك مواهب خاصّة. هل يعلم حقّاً مدى قوّة فرِد؟ لقد استطاع السيطرة على جميع من كان حاضراً في ثوانٍ.

وبرغم أني لم أرَ ملامح وجهه، عرفت أنّه كان ينتظر أن أجيبه. فقلت:

«لا تعتذر». وأخذت نفساً بصمت، ثمّ تابعت: «شكراً».

أجابني فرِد بحشرجةٍ بقيت مدفونة في حنجرته.

ثمّ لاحظت أنّي لا أستطيع النظر إليه مجدّداً.

انتظرت ريثما يرتفع خطر راوول عنّا، فمرّت الساعات ببطءٍ شديد. حاولت بين الفينة والأخرى استراق النظر إلى فرِد محاولةً فهم قصده من الموجات المقزّزة التي يرسلها. ولكنّي لم أجرؤ على المبالغة في النظر إليه خوفاً من العودة إلى التقيّؤ.

شغلني التفكير بفرِد عن التركيز على دياغو والنظر إليه. في الحقيقة، عوضاً عن النظر إليه، رحت أتنصّت إلى أنفاسه، لأتابع من خلال وتيرتها تطوّر الأمور معه. كان يجلس في أقصى الغرفة قبالتي، مستمعاً إلى الأسطوانات المدمجة، أو متظاهراً بالاستماع إليها. كما كنت أتظاهر بقراءة أحد الكتب التي استخرجتها من حقيبة الظهر المبلّلة التي ما زلت أحملها. كنت أقلّب الصفحات كالمعتاد من غير أن أستوعب شيئاً. فقد كنت أترقّب بحذر عودة راوول.

ولحسن الحظّ، دخل رايلي في تلك الساعة، ووراءه راوول وأتباعه. وكانوا يبدون أقلّ فوراناً وغضباً من العادة، فتوقّعت أنّ فرِد قد مارس قدراته ضدّهم من جديد.

توجّه رايلي نحو دياغو مباشرةً، وكنت أحتفظ بعينيّ على صفحة الكتاب امامي، وأنصت إلى أقوالهم. وبطرف عيني، رأيت بعض أتباع راوول يبتعدون عنه، ويعودون إلى محطّاتهم السابقة ليكملوا ألعاب الفيديو، أو ما كانوا يفعلونه قبل مشهد التحدّي الأخير. أمّا كيفن، فبدا وكأنّه منشغل التفكير بأمرٍ معيّن، ولمحته يدير عينيه في أرجاء الغرفة محاولاً النظر نحوي. ولكن تأثير فرِد الواقي، نجح في إبقائه بعيداً.

«أراكَ عدتَ حيّاً!». قال رايلي بنبرةٍ توحي بالفرح. وأضاف: «إنّك أهل للثقة يا دياغو».

«بالطبع، إلاّ إذا كان النجاح في البقاء طيلة النهار تحت الماء ومن غير تنفّس، أمراً سلبيّاً».

ضحك رايلي وأجاب: «لكن، حاول أن تعطي مثالاً صالحاً لهؤلاء الأطفال، ولا تتأخر في العودة إلى البيت».

وضحك دياغو أيضاً. رفعت عينيّ قليلاً، فرأيت ملامح كيفن أكثر استرخاءً. وتساءلت: «هل كان يخاف حقّاً من أن يخبر دياغو رايلي عن أخطائه ليلة البارحة؟ هل يصغي رايلي إلى دياغو أكثر ممّا أتوقّع؟» عرفت في تلك اللّحظة سبب فورة غضب راوول غير المنطقية لدى عودة دياغو حيّاً.

هل علاقة رايلي بدياغو، في حال أنّها جيّدة، تهدّد علاقتي بهذا الأخير؟ لست أدري.

مرّت ساعات النهار ببطءٍ شديد. كان المكان مزدحماً، والأجواء غير مستقرّة كما في كلّ يوم. وعادةً، عندما يشتدّ ضجيج مصّاصي الدماء، يرتفع صوت رايلي مؤنّباً إلى أن يُبحّ ويختفي. أمّا أحداث ذلك اليوم فقد نجم عنها تقطّع أطراف بعضهم بشكلٍ مؤقّت، ولكنّ الجميع نجا من خطر التأديب بالنار والتحوّل إلى رماد. ضجّت الموسيقى وصخبت، فشعرت بصداعٍ في رأسي، وأصبح من المستحيل أن أركّز عينيّ وانتباهي على الكلمات أمامي؛ عندئذٍ قرّرت التخلّي عن المحاولة، وتركت الكتب مرصوفةً فوق بعضها إلى جانب فرِد ليقرأها. هذا

ما أفعله دائماً، لكنّي، ولصعوبة النظر إلى وجهه والتكلّم إليه، لم أكتشف يوماً إن كان يقرأها بالفعل، أو كيف كان يتسلّى في جلوسه الطويل.

لحسن الحظّ أنّ راوول لم يلتفت البتة نحوي، وحتى كيفن لم يحاول النظر باتجاه مكان اختبائي الملائم والفعّال. لم ألحظ إن كان دياغو قد استمرّ في تصرّفه الحذر، ولم ينظر نحوي البتّة. من جهتي لم أحاول ذلك أبداً. لم يصدر عنّا نحن الاثنين أيّ تصرّف يوحي بأنّنا فريقٌ واحد. لا أظنّ أنّ أحداً من الحاضرين، ما عدا فرِد، ساوره أدنى شكّ حول ذلك. أقدّر أنّه لم يفت فرِد استعدادي الصامت مساء أمس للدفاع عن دياغو، لكنّي أثق بنيّاته لأنّه لو أراد قتلي حينئذٍ، لكان من السهل عليه ذلك.

ارتفعت أصوات الضيق والتململ مساءً عندما أوشك اللّيل على إرخاء أسداله. لم يكن بإمكاننا النظر إلى الخارج من خلال أغطية النوافذ السود الكثيفة، لكنّ الأيام العديدة المتوالية التي نقضيها في الانتظار، علّمتنا تحسّس وقوع اللّيل حتى لو لم نرَ نور النهار.

«أنتِ يا كريستي، خرجتِ اللّيلة الماضية». قال رايلي وصبره يكاد أن ينفد. «هاذر، جيم، لوغان، يمكنكم الانطلاق». «وأنتَ يا وارن، أرى هالةً سوداء حول عينيك. إذهب معهم». «أمّا أنتِ يا سارة، فعودي إلى مكانك. أتظنين أنّي أعمى لا يرى؟».

بعض الذين منعهم رايلي من الخروج، عادوا إلى أماكنهم على مضض، ومنهم من ينتظر انصرافه لكي يتسلّل إلى الخارج خلافاً لأوامره.

«فرِد! أظنّ أنّ دورك قد حان». قال رايلي ذلك، من غير أن ينظر نحونا.

تنهّد فرِد، وانتصب واقفاً، وما إن وصل إلى منتصف الغرفة حتى بدت على معظم الوجوه، وحتى على وجه رايلي، ملامح الاشمئزاز. ولكنّ رايلي كان يبتسم في سرّه، فهو يحبّ أن يجد بين رجاله مواهب خاصّة.

لحسن حظّي أن رايلي كان في عجلةٍ من أمره. لم يكرّس الوقت الكافي لينظر إلى من قد تساوره نفسه عدم إطاعة الأوامر في تلك اللّيلة وتأنيبه. كما أنّه لم يردّد علينا التعليمات المسائية ذاتها كما في كلّ ليلة. لقد بدا منشغلاً وكأنّه ذاهبٌ لمقابلتها. وهذا ما أوحى لي بإمكانيّة عدم الإسراع في العودة إلى البيت عند الصباح.

انتظرت خروج كريستي ورفاقها المعتادين، فتبعتهم بصمتٍ ودراية، محاولة عدم لفت النظر.

مباشرةً بعد خروجنا من البيت، انفصلت عن كريستي ورفاقها وانطلقت إلى عمق الغابة آملةً ألا يهتمّ أحدٌ سوى دياغو بتقصّي رائحتي.

وصلت إلى منتصف الطريق الصاعدة إلى الجبل وقفزت إلى

إحدى أشجار السرو الضخمة، ومكثت بين أغصانها العالية وكأنّني في برج مراقبة لكي أتنبّه لكلّ من قد تسوّل له نفسه مطاردتي.

اكتشفت لاحقاً أنّي كنت أبالغ بالحذر؛ ولم أرَ سوى دياغو قادماً نحوي من بعيد، فنزلت من برجي ولاقيته عند منتصف الطريق.

لفّ ذراعيه حولي بحرارة، وقال: «يا له من نهار طويل. خطّتك بالتصرّف كالأغراب أمام الآخرين صعبة».

فقلت وأنا أبادله الحنان: «ربّما كنت أبالغ بالخوف والوسواس».

«أعتذر عمّا حصل أمامك بيني وبين راوول. كنّا على وشك الدخول في اشتباكٍ عنيف».

قلت: «ولحسن الحظ أنّ فرِد كان مقزّزاً إلى هذه الدرجة».

«لا أعلم إن كان رايلي على علم بمقدار قوّته».

«أشكّ في ذلك، إنّي أجلس بقربه منذ وقت طويل، ولم ألحظ أنّه سبق ومارس تأثيره بهذه القوّة من قبل».

«لندع موضوع فرِد المقزّز جانباً، ولنهتم بالسرّ الذي نريد إطلاع رايلي عليه».

شعرت بارتجافةٍ تسري في جسدي، وقلت: «ما زلت غير مقتنعة بصواب هذه الفكرة».

«لن نعلم مدى صوابها حتّى نرى ردّة فعله».

فأجبت: «مبدئياً، أرفض كوني «لا أعلم»».

ركّز دياغو نظره على وجهي، وسألني: «هل تميلين للمغامرة؟».

«هذا يتوقّف على نوعها».

فقال: «كنت أستعرض الأوليّات التي اتفقنا عليها معاً كفريق، وهي كما تعلمين، السعي إلى جمع أكبر عدد من المعلومات».

«كيف؟».

أجاب: «أظنّ أنّ علينا اللّحاق برايلي، لنعلم ماذا يفعل».

فكّرت قليلاً، وقلت: «ولكنّه سيتعرّف إلى رائحتينا ويعرف أنّنا تبعناه».

«لقد فكّرت بهذا الأمر ووجدت الحلّ. أتبع أنا رائحته، وتبقين أنتِ على بعد بضع مئات من الأمتار ورائي؛ ولكنّك ستتبعين صوت تحرّكي. وهكذا سيبدو لرايلي أنّي تبعته وحدي، وسأقول له إنّي فعلت ذلك لأطلعه على السرّ الذي اكتشفته. وسأرى ما يقول». ثمّ صوّب إليّ نظرات فاحصة، وأضاف: «ولكن، أطلب منك الآن الاستمرار في الحذر، وسأشرح لك مدى تقبّله للموضوع لاحقاً».

«ولكنّكَ تودّ أن تكلّمه عندما يشارف الفجر على الطلوع حتى تتمكّن من أن تريه جلدك الذي يلمع تحت الشمس، وتدعم قولك فوراً بالبرهان».

«أنتِ على حقّ بذلك. كان مستعجلاً للانطلاق اللّيلة،

وكأنّ لديه ما سيشغله طيلة اللّيل. سنغامر بالأمر، لعلّه سيتأخر حتى الفجر».

وقلت: «قد يكون شديد الانشغال، أو أنّه كان مستعجلاً ليراها. بالطبع، لا نريد مفاجأته عندما يكون في صحبتها...».

وغمز كلانا بطرف عينه في اللّحظة ذاتها.

«هذا صحيح. ولكن، ألا تشعرين بأنّ ذلك الأمر المجهول الذي يهدّدنا بات قريباً، وحان الوقت لنعرف ما هو؟».

هززت رأسي بأسى، وقلت: «نعم... أشعر بذلك».

«إذاً، أريد أن أمضي في المحاولة. رايلي يثق بي، وفي جعبتي سرّ مهمّ أريد أن أطلعه عليه».

فكّرت في الخطّة؛ وعلى الرغم من حداثة معرفتي بدياغو، كنت متأكّدة من عدم تقبّله لمستوى قلقي المرتفع.

وقلت: «أرى أنّ هذه هي خطّتك...».

«نعم، ماذا عنها؟».

«إنّها أحاديّة، وليست عمل الفريق الذي يتكوّن منّا نحن الاثنين. وخصوصاً بالنسبة لمستوى المغامرة والخطورة».

فقال مدافعاً: «إنّها فكرتي. وأنا من ...». وتردّد، ثمّ تابع بصعوبة: «... يثق برايلي، ولذلك لا أريد أن أعرّضك للخطر إن كانت ثقتي في غير موضعها».

لم أقوَ على تجاهل مخاوفي. فقلت: «لم تنجح في إقناعي... ليس هذا ما توقّعته من العمل المشترك».

هزّ برأسه، وقال: «حسناً، سنفكّر بالأمر ونحن في

الطريق. إبقي فوق الأشجار، واتبعيني من الأعلى. موافقة؟».

«موافقة».

عاد دياغو أدراجه إلى البيت الخشبي بحركة سريعة. أما أنا فتبعته متنقّلةً بين أغصان الأشجار الكثيفة، والتي لكثافتها، مكنتني من الانتقال السريع من غير اللجوء إلى القفز. كنت أحاول التقدّم بحركات خفيفة حتى لا تنوء الأغصان تحت ثقل جسدي وتلتوي.

وصل دياغو إلى محيط البيت، والتقط رائحة رايلي هناك واستدار راجعاً. كنت أتبعه عن بعد ومن أعلى. وكان دياغو حريصاً على النقر على جذوع بعض الأشجار حتى أتمكّن من اتّباع الصوت، إذا ما صعبت عليّ الرؤية في الأماكن التي تشتدّ فيها كثافة الأشجار.

استمرّ دياغو في ركضه، وأنا في انتقالي بين الأشجار مثل سنجابٍ طائر، إلى أن خفّف سرعته بعد نحو ربع ساعة تقريباً. عندئذٍ توقّعت أنّنا اقتربنا من الهدف، فتسلّقت إلى قمّة شجرةٍ عالية جدّاً، واستعرضت المشهد أمامي.

على بعد أقل من نصف ميلٍ تقريباً، كانت هناك مساحة واسعة خالية من الأشجار، بُني عليها منزلٌ في غاية الزخرفة، وقد طُليت جدرانه الخارجية بألون فاقعة كالزهري والأخضر والأبيض، فبدا وكأنّه أحد بيوت الألعاب في قصص الأطفال.

لم أرَ رايلي هناك. لكنّ دياغو توقّف عن التقدّم كليّاً. فتوقّعت أننا وصلنا إلى الهدف. ربّما هذا هو البيت البديل للبيت

الخشبي الجديد، عندما تأتي ساعة هذا الأخير، ويصبح حطاماً مثل سابقيه. لكنّه يبدو صغيراً، ولا يحتوي على قبوٍ سفلي. كما أنّه بعيدٌ جدّاً عن سياتل.

نظر دياغو نحوي، فأومأت له بالصعود إليّ، فعاد على الدرب الذي ترك عليه رائحته منذ قليل، وعندما اقترب من مكاني، قفز نحو إحدى الأشجار القريبة بقوّة وخفّة، وراح يتنقّل بحركة لولبية بين الأشجار حتى يصعب على كلّ من يحاول تقصّي رائحته أن يكتشف التقائها مع رائحتي، أو معرفة أنّ دياغو قطع سيره على الأرض، عند هذه النقطة، وصعد إلى فوق. وعندما شعر أخيراً بأنّ الخطوات الاحترازية التي فعلها كانت كافية، اقترب منّي وأمسك بيدي، ثمّ هزّ برأسه وزمّ شفتيه استغراباً، عندما رأى البيت الملوّن قبالتنا.

ومعاً، رحنا نقترب من البيت بحذر ودراية، حتّى توقّفنا فوق الأشجار المحيطة بالمكان من الجهة الشرقية. لعلّنا إذا استرقنا السمع، نعرف شيئاً عمّا يدور في داخله.

كان النسيم هادئاً ومساعداً لنقل بعض الأصوات إلى الخارج بوضوح. لم أدرك في البدء معنى ما كنت أسمعه؛ أصوات حفيفٍ لطيف وطقطقة غريبة. لاحظ دياغو ملامح الاستغراب على وجهي، فأرسل إليّ قبلةً في الهواء، ففهمت إذ ذاك ما كان يدور في الداخل.

تختلف الأصوات التي تصدرها القبل بين مصّاصي الدماء عن تلك التي تصدر عن قُبَلِ الآدميين. فعوضاً عن التقاء ومداعبة

شفاه طرية مكتنزة بالسوائل الدافئة، تسمع طقطقة شفاه قاسية وباردة كالحجر. لم أختبر قبلة مصّاصي الدماء سوى مرّة في حياتي، عندما لامست شفتا دياغو شفتيّ اللّيلة الماضية. ولكن لم أستطع أن أربط تجربتي اليانعة تلك، بالأصوات التي كانت تأتي من الداخل في تلك اللّحظات، خصوصاً أنّها آخر ما كنت أتوقّع اكتشافه اللّيلة.

كنت أظنّ أن رايلي ذهب إليها لتلقّي بعض التعليمات، أو ليحضر إليها مجنّدين جدداً. ولكن أبعد ما كنت أتوقّعه هو وجود هذا البيت الذي يبدو وكأنّه مخصّص... للقاءات الحبّ. كيف يتمكّن رايلي من تقبيلها؟ نظرت إلى دياغو وأنا أرتجف قرفاً؛ أما هو، فلم تخلُ تعابير وجهه من الاشمئزاز أيضاً.

عدت بذاكرتي إلى آخر ليلة من حياتي الإنسانية، وارتعدت فرائصي عندما عاد إليّ الشعور بالاحتراق. وحاولت استعادة اللّحظات الأخيرة الصعبة... عندما قاد رايلي سيارته صعوداً نحو المنزل الأسود، وكان قد تبدّد الارتياح السريع الذي شعرت به بعد التهام طبق الهامبرغر كليّاً. بعد توقّف السيارة، تمسّكت بالمقعد رافضةً الخروج؛ إلاّ أنّه قبض على ذراعي بيدٍ من حديد وسحبني إلى الخارج وكأنّني دميةٌ لا وزن لها. لم أصدّق في تلك اللّحظات ما يجري وسيطر عليّ الرعب الشديد؛ ولكن الألم الشديد الذي أصابني بعد أن كسر ذراعي وهو يدفعني برغم إرادتي إلى داخل البيت جعلني أصدّق أنّي في ورطة تفوق تصوّري. ثمّ سمعت الصوت.

عندما أركّز أتمكّن من استعادة ذلك الصوت في أذنيّ. كان عالياً ورفيعاً، وكأنّه صادرٌ عن فتاة صغيرة سيّئة الطباع ومصابة بنوبة غضب.

أذكر ما قالته: «لماذا جئت بهذه؟ إنّها صغيرة جدّاً».

وأجاب رايلي محاولاً إرضاءها: «ولكنّها جسدٌ إضافي، يصلح لتشتيت الانتباه على الأقلّ».

ارتعدت خوفاً في تلك اللّحظة، فهزّني وأوجعني، لكنّه لم يكلّمني أبداً. وكأنّني حيوان غير ناطق.

ثم علا الصوت الرفيع مجدّداً: «كلّ ما فعلناه اللّيلة كان خسارة... لقد قضيت عليهم جميعاً!».

ثمّ أضافت: «حسناً، أظنّ أنّ واحدة صغيرة أفضل من لا شيء، إن كان هذا كلّ ما استطعت إحضاره. على كلّ حال، إنّي أشعر بالشبع الآن ولا أحتاج للمزيد من الغذاء في الوقت الحاضر».

في تلك اللّحظة، أرخى رايلي قبضته عنّي، وتركني وحيدة مع ذلك الصوت. كنت عاجزة عن إخراج أيّ صوت من حنجرتي، وأقفلت عينيّ برغم أنّي كنت لا أبصر شيئاً في ظلام ذلك المكان. وفجأةً صرخت من شدّة ألمي، فقد شعرت أنّ شيئاً حادّاً اخترق عنقي.

لا أستطيع الاستمرار في نبش ظلمات ذاكرتي الآن، أريد التوقّف عند هذا الحدّ لأنّ ما جاء بعد ذلك كان شديد الصعوبة؛ ولكنّي أريد التركيز على ذلك الحوار القصير الذي دار بينهما.

أسلوبها في التحدّث إليه لا يوحي للسامع بأنّها تتحدّث إلى حبيبٍ أو حتى صديق، بل إلى موظّف عادي لا يقوم بواجباته على أكمل وجه، ما قد يدفعها إلى الاستغناء عن خدماته في وقتٍ قريب.

لم تتوقّف الأصوات الغريبة القادمة من المنزل، وسمعنا أحد الاثنين يتنهّد معبّراً عن سعادته.

نظرت إلى دياغو... ما الفائدة من الاستماع إلى كلّ هذا لوقتٍ أطول؟

ولكنّه بدا مركّزاً أكثر الآن، وكأنّه يتوقّع شيئاً آخر.

بعد دقائق، توقّفت الأصوات الرومانسية فجأةً، وسمعنا صوتها يسأل: «ما عددهم؟».

وأجاب رايلي بفخر محسوس: «اثنان وعشرون».

تبادلنا، أنا ودياغو نظرة سريعة. إنّهم يتكلّمون عنّا، فنحن الآن اثنان وعشرون، بحسب نتيجة العدّ الأخير على الأقلّ.

«كنت أظنّ أنّي فقدت اثنين منهم احتراقاً بأشعّة الشمس البارحة، لكن أحد أولادي الأكبر سنّاً كان... مطيعاً». وشعرنا بنبرة حنان في صوته عندما تكلّم عن دياغو ووصفه بأنّه «أحد أولاده». وتابع: «لديه كهفٌ تحت الأرض فاختبأ فيه مع الأصغر سنّاً».

«هل أنتَ متأكّد؟».

كانت هناك فترة من السكوت، خالية من الأصوات

الرومانسية، وبرغم المسافة، شعرت ببعض التوتّر يسود الحوار في تلك اللّحظة.

أجاب رايلي: «نعم. إنّه ولدٌ مطيع».

وساد الصمت قليلاً من جديد. لم أفهم ما قصدت بسؤالها: «هل أنتَ متأكّد؟». هل فكّرت أنّ رايلي يعتمد في كلامه على ما سمعه، ولم يرَ الأمر بأمّ عينه؟

ثمّ قالت: «اثنان وعشرون، عددٌ جيّد». وشعرت بأنّ التوتر كان قد تبدّد. وتابعت: «يكاد أن يصبح عمر بعضهم سنة، هل ما زالوا منضبطين في سلوكهم، ويتبعون القواعد بدقّة؟».

أجاب رايلي: «نعم، أطبّق تعليماتك والنتيجة ناجحة. فهم لا يفكّرون، بل يتصرّفون بالطريقة ذاتها دائماً. أستعمل سلاح العطش معهم، فهو يسهّل عليّ السيطرة عليهم».

قطّبت حاجبيّ ونظرت إلى دياغو قائلة: «رايلي لا يريدنا أن نفكّر! لماذا؟».

ووصل إلينا صوتها من جديد: «لا بأس بما فعلته... اثنان وعشرون ما زالوا أحياء، عددٌ جيّد! وسمعنا صوت قبلةٍ أخرى».

وسأل رايلي بحماسة: «هل حان الوقت؟».

أجابته بلهجة مقتضبة: «كلاّ! لم أقرّر الموعد بعد».

«لا أفهم».

«لستَ بحاجة لأن تفهم. كافٍ أن تعلم أنّ عدوّنا يتمتّع بقوّة كبيرة ومتنوّعة، ويجب أن تكون استعداداتنا عالية جدّاً». ثمّ

عادت إلى الكلام بنغمةٍ ناعمة وماكرة في آنٍ معاً، لتضيف: «مهما عظمت قوّتهم وتنوّعت... إلى أيّ حدّ سيصمدون أمام اثنين وعشرين...؟» وضحكت.

كنت، أنا ودياغو، ننظر إلى بعضنا وتراودنا الأفكار عينها. لقد تحقّق ظنّنا أنّنا خُلقنا لهدفٍ معيّن. لدينا عدوٌّ؛ أو بالأحرى هي التي لديها عدوّ. ولكن هل هناك فرق!؟

وراحت تردّد: «القرار، القرار...». وتابعت: «ليس الآن. من أجل الانتصار الأكيد، يجب إضافة دفعة جديدة، ولو قليلة».

وأجاب رايلي بحذر، وكأنّه خائفٌ من إغضابها: «إضافة عدد جديد إلى الموجودين قد يؤدّي إلى إنقاص العدد الأصلي. إدخال الجدد عادةً يزعزع الاستقرار».

فقالت: «أنت على حقّ». تخيّلت أنّ رايلي قد تنفّس الصعداء الآن، لأنّها لم تغضب.

أدار دياغو رأسه فجأةً، وراح ينظر باتجاه المرج الواسع. لم أتنبّه إلى أيّ حركة؛ هل خرجت المرأة من المنزل؟ أدرت برأسي أيضاً بينما تجمّد جسدي كالتمثال من شدّة الرعب. وإذا بي أرى المشهد الذي استحوذ على انتباه دياغو.

أربعة أشخاص يسيرون نحو البيت. لقد دخلوا الساحة من جهة الغرب، أيّ من النقطة الأبعد عن مكان وجودنا. كان كلُّ واحد من الأربعة يرتدي جلباباً طويلاً أسود، مزوّداً بقبّعة طويلة.

ظننت للوهلة الأولى أنّهم آدميّون على الرغم من مظهرهم الغريب؛ فهم ليسوا مصّاصي دماء بالطّبع، لأنّي لم أرَ في حياتي بين هؤلاء من يرتدي لباساً موحّداً يشبه لباس القوطيّين في القرون الوسطى. كما أنّهم لا يتنقّلون على أقدامهم بهذه الخطى الخفيفة والأنيقة. وفي الواقع، لا أحد من الآدميين يستطيع التنقّل بهذه الطريقة، ومن غير إصدار أيّ نوع من الأصوات. كان الزائرون يتقدّمون نحو البيت ويسيرون فوق العشب الطويل بهدوء تامّ. قلت في نفسي: «قد يكون هؤلاء مصّاصي دماء، أو مخلوقات خارقة، وربّما أشباح». إن كانوا مصّاصي دماء فلعلّهم الأعداء الذين لا نعرفهم. وإذا كان افتراضي صحيحاً، فهذا يعني أنّ علينا الابتعاد من هنا فلسنا قادرين على المواجهة في تلك اللّحظة، خصوصاً أنّ رفاقنا العشرين ليسوا إلى جانبنا الآن.

كنت على وشك الهروب السريع، لولا خوفي من افتعال أيّ ضجّة قد تلفت الانتباه.

مكثت في مكاني أراقب تقدّمهم الحثيث والهادئ، ولاحظت أنّهم لا يسيرون على خطّ واحد بل يرسمون شكلاً هندسيّاً دقيقاً يحافظون عليه كيفما تغيّرت تضاريس الأرض تحت أقدامهم. وكان من يسير على رأس هذا الشكل الهندسي، الذي يشبه المعيّن، أقصر قامة من الآخرين وثوبه أشدّ سواداً من أثوابهم. لفتني أنّهم لا يتقصّون رائحة معيّنة لمعرفة طريقهم، بل يسيرون بثقة تامّة وكأنّهم قادمون بناءً على دعوة، وسكان البيت في انتظارهم.

وصلوا أمام البيت، وتسلّقوا الدرج. فشعرت إذ ذاك بالأمان واستعدت أنفاسي؛ فعلى الأقلّ، لم يأتوا بشكلٍ مباشر نحوي أو نحو دياغو. فعندما يختفون عن أنظارنا، سنتمكّن من العودة من حيث أتينا من دون أن يتنبّه إلى وجودنا أحد.

نظرت إلى دياغو وأشرت إليه بعينيّ نحو طريق العودة، إلاّ أنّه زمّ عينيه، ورفع إصبعه. حسناً، إنّه يريد البقاء وقتاً أطول؛ ولكن لماذا؟

نظرنا نحو مدخل البيت معاً، ورأينا الجلابيب السود تجد طريقها إلى الداخل بهدوء تامّ. وفي تلك اللّحظة، خطر في بالي أنّنا لم نسمع أيّ صوت من الداخل منذ أن وقع نظرنا على الزائرين. توقّعت أنّها ورايلي قد سمعا شيئاً، أو أحسّا بطريقةٍ أو بأخرى بالخطر القادم عليهم.

وفجأةً وصل إلى أذنينا صوتٌ أنثوي واثق وحادّ، لم يكن بالتأكيد صوت خالقتنا. وقال الصوت: «أنتما تعرفان من نحن. لا تحاولا الهرب ولا الاختباء منّا، ولا مفاجأتنا أو محاربتنا».

وتردّد في البيت صدى حشرجة ذكورية مخيفة، لم تكن صادرة عن رايلي.

«لا تخافوا!». قال الصوت الانثوي الواثق، الذي تأكّدت من خلال طابعه المميّز أنّ صاحبته هي من نوعنا. واستنتجت أنّ الزائرين الغرباء ليسوا آدميّين ولا أشباح. وتابع الصوت: «لسنا في صدد القضاء عليكم بعد».

ووقع الصمت للحظات. ثمّ سمعنا ضجّة خفيفة توحي ببعض الحركة.

ثمّ ارتفع صوت خالقتنا الأجشّ ليقول: «إذا كان هدفكم ليس قتلنا، إذاً ماذا تقصدون من زيارتكم؟».

فأجابت الزائرة الغريبة: «نريد أن نعرف هدفكم ممّا تقومون به، وخصوصاً... هل له علاقة بعائلة معيّنة تسكن في هذه المنطقة؟». وتابعت: «هل من رابط بين تلك العائلة، وما تقترفونه من أعمال العنف الفاضحة وغير المشروعة في المنطقة؟».

تبادلت مع دياغو نظرات التساؤل. لم نفهم عمّا كانوا يتكلّمون؛ وما أثار عجبي بنوعٍ خاصّ، كان التكلّم عن الأعمال غير المشروعة. منذ متى كانت أعمال مصّاصي الدماء مشروعة؟ وهل للشرطة، أو القضاء، أو السجون سلطةٌ علينا؟

وأجابت خالقتنا: «نعم، كلّ خطتنا تدور حولهم. ولكنّنا لم نستطع التحرّك حتى الآن، فالأمر ليس سهلاً».

«صدّقيني، نعلم جيّداً نوع الصعوبات التي تواجهينها. كيف استطعت الإفلات من محيط الرادار، إذا صحّ التعبير، حتى الآن؟ كيف تفعلين ذلك، أودّ أن أعرف».

تردّدت خالقتنا، ثمّ تكلّمت بسرعة، وبدا أنّها تشعر بأنّها مجبرة على إعطاء الجواب. وأخيراً اعترفت بالسرّ الذي يجعلها تبقى خارج الرادار، فقالت: «لم أتّخذ القرار بالهجوم». ثم أضافت، وببطء: «لا أتّخذ القرار عندما أفكّر بشيءٍ ضدّهم».

«هذا ليس سهلاً، ولكنّه فعّال. ولكن ولسوء الحظّ، لم يبقَ أمامك وقت طويل للتفكير. عليك اتخاذ القرار الآن حول ما ستفعلينه بجيشك الصغير». قالت الزائرة. ونظرنا أنا ودياغو إلى بعضنا بتعجّب كبير بعد سماع تلك الكلمات. وتابعت الزائرة: «وإن لم تفعلي، فمن واجبنا معاقبتك بحسب ما ينصّ عليه القانون. ليس من عادتنا إعطاء مهلة ولو قصيرة. أقترح أن تعطونا ضماناً يؤكّد امتثالكم للأوامر... بسرعة».

«سنهاجم فورًا!». قال رايلي بحماسة. وسمعنا هسيساً حادّاً.

«سنهاجم في أقرب فرصة ممكنة. قالت خالقتنا مصحّحة قول رايلي». وأضافت: «لدينا تحضيرات عدة. إن كانت النتيجة المرجوّة هي النجاح، فعلينا أن نصرف بعض الوقت في تدريبهم، وتغذيتهم، وإعطائهم التعليمات».

وكانت هناك لحظة صمت.

«سنأتي لنرى ماذا فعلتم بعد خمسة أيّام. أمّا لو لم تهاجموا خلال خمسة أيّام، فستتحوّلون إلى رماد لا محالة؛ ولن يفيدكم صخر تختبئون تحته حينئذٍ، ولا سرعةٌ تساعدكم على الهروب».

«وإن كنت قد قمت بالهجوم؟». سألَتْ خالقتنا بصوتٍ مرتجف.

«سنرى حينذاك». أجابت الزائرة بنبرةٍ أكثر تفاؤلاً، ثمّ استعادت حالاً لهجتها الجافّة والصارمة لتقول: «كلّ شيء يتوقّف على مدى نجاحك. إفعلي كلّ ما بوسعك لإرضائنا».

«نعم». أجابت خالقتنا بصوت أجشّ.

وردّد رايلي بعدها: «نعم».

وبعد ثوانٍ خرج الزائرون بهدوء، ولم نلتقط أنفاسنا بعد اختفائهم عن الأنظار إلاّ بعد مرور خمس دقائق. وفي داخل البيت، وقع السكون واستمرّ ما يقارب عشر دقائق أخرى.

لمست ذراع دياغو، فهذه فرصتنا لمغادرة المكان. لم يعد رايلي بالنسبة إليّ مصدر رعبٍ شديد في تلك اللّحظة؛ ولكن كنت أريد الابتعاد قدر ما أستطيع عن الجلابيب السود. أريد أن أشعر بالأمان بقرب أفراد عشيرتي العديدين الذين ينتظرون في البيت الخشبي الكبير. لا بدّ أن الشعور ذاته يساور «خالقتنا» في هذا الوقت. ألم يكن هذا هو السبب الأساس لوجودنا بهذا العدد الكبير. هناك في الواقع أمور مخيفة أكثر ممّا كنت أتصوّر.

تردّد دياغو عن الانطلاق، وكان لا يزال متنبّهاً لأيّ صوت قد يصدر من البيت. وبعد قليل، سمعناها تقول هامسة:

«حسناً، لقد عرفوا... الآن».

هل كانت تتكلّم عن أصحاب الجلابيب، أم عن العائلة التي تسكن في هذه المنطقة والتي لا نعرفها؟ أيّهما هو العدوّ الذي كانت تتكلّم عنه سابقاً؟

قال رايلي: «لا داعي للخوف. نحن نفوقهم عدداً».

أجابت بنبرةٍ مؤنّبة: «كلّ إنذار هو مدعاة للخوف. ليس أمامنا سوى خمسة أيام، وعلينا القيام بكثير من الأمور التحضيرية. لا تضيع الوقت. إبدأ اللّيلة».

«لن أخيّب ظنّك». قال رايلي.

سمعنا ذلك الخبر المشؤوم، ورحنا نطير في طريق العودة فوق الأشجار حتى نصل إلى البيت قبل عودة رايلي. ولكنّ دياغو الآن كان متخوّفاً من أن يكتشف رايلي رائحته على الطريق، خصوصاً بعد زيارة هؤلاء الغرباء.

«من حسن الحظّ أنّنا لم نكن أمام البيت؛ لأنّي لا أريده أن يعرف أنّنا سمعنا الحوار».

«سنتكلّم إليه معاً».

«لقد فات الأوان لذلك، لأنّه سيلاحظ أنّ رائحتك ليست على الطريق، ويثير هذا الأمر الشكوك لديه».

«دياغو...». ها أنّه يريد إبقائي خارج الموضوع كليّاً.

عدنا إلى المكان الذي التقينا فيه فوق الأشجار في أوّل اللّيل. فقال لي بهمس: «لنفعل ما كنّا قد اتفقنا عليه يا بري. سأقول له ما كنت أنوي قوله. وإن لم يصدّقني، فلن يأبه كثيراً لمخيّلتي الواسعة، إذ إنّ لديه أموراً أكثر خطورةً في الوقت الحاضر. ولعلّه سيهتمّ للأمر الآن أكثر، فنحن بحاجة لكل دقيقة إضافية من الوقت؛ والقدرة على الخروج في ضوء النهار تساعدنا كثيراً».

قلت من جديد: «دياغو...»، ولكن لم يكن لديّ شيء أضيفه.

نظر إلى عينيّ، وانتظرت لأرى ابتسامته الجميلة، أو نكتةً تضحكنا مثلاً، لكنّه انحنى نحوي ببطء، وعيناه في عينيّ،

ووضع شفتيه الناعمتين فوق شفتيّ، وقبّلني.

ثمّ أدار وجهه، وزفر نفساً طويلاً ثمّ قال: «عودي إلى البيت، واختبئي وراء فرِد، وتصرّفي كأنّك لا تعلمين أيّ شيء عن كلّ ما يجري. إنطلقي وسأتبعك».

قلت: «إنتبه إلى نفسك».

أمسكت بيده وشددتّ عليها. كان عليّ التسليم بالأمر الواقع والانفصال عنه في تلك اللّحظة. لقد تكلّم عنه رايلي بحنان؛ أرجو أن يكون ذلك الحنان حقيقيّاً.

اختفى دياغو بين الأغصان من غير ضجيج، ولم أضع الوقت في النظر إليه وهو يبتعد، بل أطعت تعليماته وعدت مباشرةً إلى البيت.

وفكّرت بشأن عينيّ، هل لا تزالان حمراوين منذ وجبة البارحة... ربّما كنت بحاجة لصيد جديد لكي أبرّر غيابي. لحسن الحظ، وقعت بعد قليل على رجل يتسلّق الجبل منفرداً، فكان صيداً سريعاً كما رجوت.

وصلت إلى محيط البيت وسمعت الموسيقى الصاخبة كالعادة، ولكنّ رائحة قويّة كانت تنبعث من ذلك المكان أيضاً. كنت أعرف هذه الرائحة جيّداً، وفي كلّ مرّة أشمّها، تعتريني رعشة رعبٍ شديد. إنّها رائحة احتراق أعضاء أو جثّة أحد سكّان البيت. ولكن، وبرغم الخوف، كان عليّ الدخول إلى البيت، فالخطر الذي قد أتعرّض له في داخله، لم يكن أعظم من خطر البقاء خارجه. لم أخفّف من سرعتي أبداً، بل أكملت طريقي

بسرعة وهبطت الدرج وتوجّهت فوراً إلى الزاوية حيث استطعت أن أرى بصعوبة فرِد واقفاً على غير عادته. هل كان قد تعب من الجلوس، أم أنّه ينوي القيام بعملٍ ما؟ على كلّ حال، كل ما كان يهمّني في تلك اللّحظات، كان المكوث قريباً منه ريثما يعود رايلي ودياغو.

وفي وسط القبو، كانت هناك كومة كبيرة من الرماد لا توحي بأنّها نتيجة احتراق ذراعٍ أو ساق، بل إنّ واحداً من الاثنين والعشرين قد زال من الوجود. خسارة في غير وقتها بالنسبة إلى رايلي!

إلاّ أنّ لا أحد من الحاضرين كان يبدو شديد التأثر أو الانزعاج، فالمشهد بالنسبة إليهم عاديٌّ جدّاً.

عندما كنت أسرع باتجاه فرِد، لم أشعر بالتقزّز يزداد مع اقترابي منه، بل ذهب كليّاً عندما وصلت إليه. كان فرِد يقرأ في أحد الكتب التي تركتها له، ولم يتنبّه لاقترابي. هل باستطاعته أن يوقف تأثيره المقزّز عندما يريد؟ وهل أنّ ذلك يعني أنّ كلينا أصبحنا من غير حماية الآن؟ شعرت ببعض الاطمئنان عندما لاحظت غياب راوول في تلك الساعة، ولكن كيفن كان موجوداً.

كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها فرِد بوضوح. طويل القامة، ربّما يجاوز طوله ستّ أقدام؛ عريض الكتفين ومفتول العضلات. كان يبدو أكبر سنّاً من البقيّة؛ طالب جامعي وليس تلميذاً في الصفوف الثانوية. وما لفتني حقّاً، وأثار عجبي، هو

أنّ فرِد كان شابّاً وسيماً مثل الآخرين، أو أشدّ وسامةً منهم. لا أعرف لماذا وجدت ذلك الأمر غريباً للوهلة الأولى، ربّما لأنّ صورته في ذهني كانت مرتبطة بتأثيره المقزّز.

شعرت بالإحراج وأنا أمعن النظر في فرِد. وأدرت نظري بسرعة في أرجاء الغرفة لأرى هل انتبه الآخرون إلى مظهره الحسن والطبيعي في ذلك الوقت، ولكنّي لاحظت أنّ أحداً لم يكن ينظر في اتجاهنا، ثمّ حاولت التطلّع بسرعة وحذر إلى كيفن، فوجدته عابساً بعض الشيء، وعيناه مصوّبتان إلى نقطة معيّنة إلى يسارنا. وقبل أن أرفع نظري عنه، رأيته يدير عينيه نحوي ويثبّتهما على نقطةٍ إلى يميني. فعرفت أنّه أراد رؤيتي... ولكنّه لم يتمكّن من ذلك، فازداد عبوساً.

ابتسمت ولكنّي سارعت إلى إخفاء ابتسامتي، لم يكن مزاجي بمستوى الصفاء الكافي لأفرح إذا فقد كيفن بصره. وعدت لأركّز على فرِد، فرأيته يبتسم، ويزيده الابتسام إشراقاً.

بعد لحظات، عاد فرِد إلى القراءة، فمكثت في مكاني، لا أقوم بأيّ حركة بانتظار حدوث أمرٍ ما. عودة دياغو مثلاً... بمفرده، أو بصحبة رايلي. أو عودة تأثير فرِد المقزّز إلى الانتشار. أو محاولة ثانية من كيفن لرؤيتي، أو ربّما وقوع نزاعٍ آخر بين الموجودين.

ولكن عندما لم يحدث شيءٌ من ذلك، عدت إلى نفسي وتصرّفت كما ينبغي؛ وكأنّ كلّ الأمور تسير بطريقةٍ عاديّة جدّاً. التقطت أحد الكتب الموجودة إلى جانب فرِد لأتظاهر بالقراءة.

لعلّه الكتاب ذاته الذي كنت أقلّب صفحاته البارحة، لكنّي لم أتذكّر أيّ حرفٍ منه. ورحت أقلّب الصفحات من جديد من دون استيعاب أيّ شيءٍ البتّة.

دارت أفكاري حول مسائل عدة. أين دياغو الآن يا ترى؟ كيف كانت ردّة فعل رايلي على ما قاله له؟ ما معنى كلّ الذي جرى اليوم؛ الحديث قبل وصول الزائرين، والحديث بعده؟

رحت أستعيد كلّ ما جرى وأحاول فهمه. أوّلاً، يحكم مجتمع مصّاصي الدماء سلطة تشبه الشرطة الأمنية، وهي مخيفة جدّاً. ثانياً، هناك خطّة لتشكيل جيش غير نظامي من هذه المجموعة من مصّاصي الدماء الجدد المشرذمين والمتوحّشين. لدى خالقتنا عدوّان مخيفان، وسنشنّ هجوماً على أحدهما بعد خمسة أيّام. وإن لم نفعل، فسيقوم العدوّ الثاني، أيّ الغرباء الذين يرتدون الجلابيب السود، بالهجوم عليها أو علينا. ويجب أن نبدأ هذه اللّيلة استعداداتنا للهجوم، منذ لحظة وصول رايلي إلى البيت. ثمّ استعدت في ذاكرتي الحديث الذي دار بين رايلي وبينها قبل مجيء الغرباء. كانت مضطربة حول مسألة اتخاذ القرار، لكنّها فرحت عندما أطلعها رايلي على عدد مصّاصي الدماء «الجنود». أما رايلي فكان مرتاحاً لأنّ دياغو وأنا لا زلنا أحياء... وأخبرها عن ارتياحه لأنّه لم يخسر اثنين آخرين احتراقاً بأشعة الشمس. هل يعني ذلك أنّ رايلي يجهل حقيقة ردّة فعل أجسادنا على أشعة الشمس؟ أمّا سؤالها حول هذا الموضوع فكان غريباً. لقد سألت رايلي إذا كان متأكّداً. هل

أرادت التأكّد من أنّ دياغو ما زال حيّاً؟ أو أنّ هذا الأخير لم يكذب حول قصّة اختبائه في الكهف؟

ارتجفت خوفاً من ذلك السؤال الأخير. هل هي على معرفة بأنّ الشمس لا تؤذينا؟ وإن كانت تعرف ذلك، فلماذا تخفي هذه الحقيقة عن رايلي، وعنّا من خلاله؟

ولماذا تفضّل أن نبقى في الظلمة؟ هل مهمٌّ بالنسبة إليها أن نبقى جاهلين مفعول الشمس الحقيقي علينا؟ هل بقاؤنا في هذا الجهل ضروريٌّ إلى درجة قد تدفعها إلى إلحاق الأذى بدياغو؟ شعرت بالهلع من مجرّد التفكير بهذا الأمر. وبكلّ تأكيد كان العرق سيتصبّب منّي لو كان جسدي الحالي يسمح بالتعرّق. ورحت أحاول استعادة هدوئي فنظرت مجدّداً إلى الكتاب، وفتحت صفحة جديدة وحاولت تركيز نظري عليها.

هل كان رايلي ضحيّة الخدعة، أو مشتركاً فيها؟ عندما ذكر رايلي أنّه خاف أن يفقد اثنين آخرين بسبب أشعّة الشمس، هل كان يشير حقّاً إلى أشعّة الشمس، أو إلى الكذبة حول أشعة الشمس؟

إن كان الاحتمال الثاني هو الجواب، فمعنى ذلك أنّ اكتشاف الحقيقة قد تكلّف مكتشفها حياته. وأمعن الهلع مجدّداً في تعذيبي.

حاولت اعتماد المنطق في التفكير والاستنتاج، لكنّي شعرت بصعوبة القيام بذلك في غياب دياغو. فتبادل الأفكار مع شخصٍ آخر يساعدني على التركيز. عندما أفكّر بمفردي، يتغلّب عليّ

الخوف ويتربّص بي الشعور بالعطش الحاضر أبداً في داخلي. لذّة امتصاص الدماء لا تغيب عن إغرائي في أيّ وقت. ها إنّي الآن، وعلى الرّغم من كوني ابتلعت كميّة لا بأس بها من الدماء منذ وقتٍ قصير، لا يفارقني شعور الاحتراق والعطش.

حاولت التركيز على خالقتنا وعلى رايلي، وطرح السؤال على نفسي. إن كانا يكذبان، فما الذي يدفعهما إلى الكذب؟ لعلّ الجواب يساعدني على توقّع كيفية تعاملهما مع دياغو عندما يكشف عن معرفته بسرّهما.

لو لم يكذبا، ولو قالا لنا إنّ الخروج في النهار لا يؤذينا، كيف كان ذلك سيغيّر في مجرى الأمور؟ تخيّلت كيف سنتصرّف لو لم نشعر بالخوف من الخروج ساعة نشاء. تخيّلت كيف سيكون الحال مع مجموعة الاثنين والعشرين، والذين باتوا الآن واحداً وعشرين من مصّاصي الدماء، وربّما أقلّ، لأنّ ذلك يتوقّف على ما يجري في مغامرات الصيد هذه اللّيلة، كيف سيكون الحال لو كان لدى هؤلاء حريّة عمل أيّ شيء، وفي أيّ ساعة من ساعات اللّيل والنهار.

سوف يجذبنا حبّ الصيد في الدرجة الأولى، وهذا أمر معروف.

إن لم نكن مجبرين على الاختباء من ضوء النهار... أتصوّر أنّنا سنتخلّف عن العودة إلى البيت بشكلٍ منتظم. الخوف من الاحتراق الذي زرعه رايلي بقوّة في نفوسنا هو السبيل الوحيد الذي يردعنا عن السعي إلى الصيد من دون انقطاع. لا

شيء أقوى من غريزة حبّ البقاء، فهي وحدها تستطيع التحكّم بالعطش إلى الدماء.

إذاً، الخوف من الموت هو الذي جعلنا نبقى معاً. قد تكون هناك أمكنة أخرى للاختباء، مثل الكهف الخاصّ بدياغو؛ ولكن لماذا التفكير بمكانٍ آخر طالما هناك بيتٌ جاهز لاستقبالنا قبل الفجر. صفاء الفكر ليس من صفات مصّاصي الدماء، وبنوعٍ خاص الجدد. رايلي مصّاص دماء قادرٌ على استعمال عقله. ودياغو يتفوّق عليّ بالقدرة على التركيز. أمّا الغرباء أصحاب الجلابيب، فمستوى تركيزهم عالٍ جدّاً، ويصل إلى درجة مخيفة. إذاً، لا يمكن لخالقتنا ولرايلي الاستمرار بالسيطرة علينا، أو إجبارنا على الالتزام بنظام العيش الذي اختاراه لنا إلى الأبد. ماذا سيفعلان عندما نتقدّم في السنّ وتتحسّن قدراتنا الذهنية؟ وتساءلت فجأةً لماذا لا يوجد بيننا من هو أكبر سنّاً من رايلي؟ كلّ من يعيش هنا صغير السنّ. لقد جمعتنا تلك المرأة هنا لنقضي على عدوّها. ولكن ماذا عن المستقبل؟ ماذا سنفعل بعد ذلك؟

وفجأةً ساورني شعورٌ قويّ بأنّي لا أريد أن أكون هنا في تلك المرحلة؛ وعرفت حالاً أنّ هذا هو الحلّ الذي كنت أفتّش عنه، وأسعى بصعوبة للإمساك بأطراف خيوطه، بينما كنت أنا ودياغو نتقصّى المكان الجديد الذي حطّ فيه هذا القطيع رحاله.

لا أريد البقاء هنا حتى المرحلة القادمة. بل أرفض البقاء هنا حتى اللّيلة القادمة!

تجمّدت أعضائي من جديد عندما لمعت في بالي هذه الفكرة العظيمة.

لو لم نتمكّن في تلك اللّيلة من معرفة الاتجاه الذي اختاروه، لما استطعنا إيجادهم. وذلك على الرّغم من عددهم الكبير وكثافة الرائحة التي تساعد في تقفّي أثرهم. ماذا لو قصد واحد منّا أو اثنان مثلاً الانفصال عن المجموعة؟ اثنان يمتلكان القدرة على الانتقال بخفّة والقفز فوق الأشجار والذهاب إلى مكانٍ بعيد من دون ترك أيّ رائحة أو أثر يُقتفى... سيتمكّنان من السباحة إلى مكانٍ بعيد، ثمّ الخروج إلى اليابسة على شواطئ كندا، أو كاليفورنيا أو تشيلي أو الصين...

لن يتمكّن أحدٌ من إيجادهما. سيختفيان كالدخان في الهواء.

لم نكن مجبرين على العودة في تلك اللّيلة! كان علينا ألاّ نعود! لماذا لم يخطر في بالي هذا الحلّ في ذلك الحين؟

ولكن هل كان دياغو سيوافق؟ لم أكن واثقة من ذلك. هل يفضّل دياغو أن يبقى وفيّاً لرايلي؟ وهل يشعر بمسؤولية الوقوف معه؟ إنّه يعرف رايلي منذ زمن، ولم يكن قد تعرّف عليّ سوى في تلك اللّيلة. هل كان يشعر بأنّه مقرّبٌ من رايلي أكثر منّي؟

ورحت أفكّر في ذلك.

وقرّرت أنّي سأتأكّد من ذلك في أوّل فرصة سانحة لأتكلّم مع دياغو على انفراد ولو لدقيقة واحدة. إذا كان اتفاقنا السرّي مهمّاً وحقيقيّاً، أتوقّع أن يوافق دياغو معي على الرحيل من هنا.

لا مشكلة إذا بقي لدى رايلي تسعة عشر مصّاص دماء. ما زال هذا العدد كافياً، وإن لم يكن كذلك، يمكنه تحويل غيرنا من حثالة البشر إلى مصّاصي دماء بسهولة.

شعرت بحماسة شديدة لأطلع دياغو على خطّتي. وساورني إحساسٌ خفيّ بأنّه سيوافق.

وفجأةً، تساءلت إذا كان هذا ما قام به ستيف وشيلي والآخرون الذين ذهبوا ولم يعودوا. أعلم جيّداً أنّهم لم يحترقوا بسبب الشمس. لقد قال لنا رايلي أنّه شاهد رمادهم لكي يخيفنا أكثر، فلا نتخلّف عن العودة في كلّ صباح قبل الفجر. لقد ذهب ستيف وشيلي في طريقهما، إلى حيث لا أحد يزعجهما كما كان يفعل راوول؛ إلى حيث لا أعداء ولا جيوش تهدّد مستقبلهما.

لو فعلنا أنا ودياغو كما فعل ستيف وشيلي، لكنّا الآن نعيش بحريّة، من غير خوف من طلوع الشمس ولا من قوانين.

ولكن عدت لأتخيل كيف ستكون المجموعة، لو كانت تعيش من غير رادع ولا وقت محدّد للعودة إلى البيت. رأيت نفسي ودياغو نتصرّف مثل عصابة ضفادع نينجا، أيّ بمهارة وهدوء. ثمّ تصوّرت راوول وكيفن والبقيّة. سيكونون مثل كرات ضخمة من الأضواء المتحرّكة في شوارع المدينة المزدحمة. وتخيّلت الجرائم الشنيعة التي سيقترفونها، والجثث التي ستتراكم على الطرقات، والطائرات المروحية المحلّقة فوق

مكان الجريمة، ورجال الشرطة ومسدساتهم التي يعجز رصاصها عن إحداث أيّ خدش في أجسادهم. إضافةً إلى كاميرات الصحافيّين، والرعب الذي سينتشر بسرعة البرق في البلاد، والصور التي ستنتشر في العالم.

لن يبقى وجود مصّاصي الدماء سرّاً على أحد. وحتى ما يفعله راوول، وهو قتل كلّ شاهد على الجريمة للحدّ من انتشار الأخبار، فذلك أيضاً لن يحلّ المشكلة.

كنت أتبع تسلسلاً منطقيّاً في التفكير، من افتراض واستنتاج، وأصرّ على المتابعة.

أوّلاً، يجهل الآدميّون وجود مصّاصي الدماء في العالم. ثانياً، يشدّد رايلي دائماً على أهميّة الصيد في الخفاء ومحو آثار الجريمة لكي لا يتنبّه الآدميّون إلى وجودنا. ثالثاً، سبق وتبادلنا أنا ودياغو الحديث حول هذا الموضوع، وقرّرنا أنّه يجب على الجميع اتباع تعليمات رايلي لإخفاء سرّ وجودهم عن الآدميين وإلاّ تفشّى السرّ في العالم أجمع. رابعاً، لا بدّ أنّ هناك سبباً مهمّاً ومباشراً لهذا الحذر الشديد؛ وهو ليس بالطبع الخوف من مسدسات الشرطة الواهية. لا بدّ أن يكون السبب مهمّاً جدّاً وكافياً لتبرير اختباء مصّاصي الدماء طيلة ساعات النهار في قبوٍ مظلمٍ وضيّق. سببٌ مهمٌّ وكافٍ ليبرّر كذب رايلي وخالقتنا علينا لكي نعيش في رعبٍ من الشمس. ربّما سيشرح رايلي هذا السبب المهمّ لدياغو، فيتعهّد له هذا الأخير، ومن موقع شعوره بالمسؤولية، بعدم إفشاء السرّ. ولكن ماذا لو أنّ الحقيقة هي أنّ

ما حدث مع ستيف وشيلي، هو أنّهما تكلّما مع رايلي حول هذا الموضوع. . . ولم يهربا؟

أصابني الرّعب فجأةً حول مصير دياغو. . . فانقطع حبل أفكاري وتوقّفت عن المتابعة.

ثم اكتشفت أنّ معظم اللّيل كان قد انقضى، والفجر أوشك على الطلوع. فتساءلت: «لماذا لم يعد دياغو حتى الآن؟ وأين هو رايلي؟».

وفجأةً انفتح الباب، وانحدر راوول بقفزةٍ واحدة إلى القبو، كان يتضاحك مع رفاقه. أحنيت ظهري بسرعة واقتربت أكثر من فرِد. لم يلحظ راوول وجودنا بل نظر إلى رماد مصّاص الدماء الذي أُحرق في وسط الغرفة، وأرسل ضحكةً عالية. نظرت إليه بطرف عيني، ولاحظت لون عينيه الأحمر الفاقع.

عندما يخرج راوول للصيد، لا يكتفي بصيدٍ عادي، بل يستمرّ في مغامراته إلى ما قبل الفجر بقليل. ها هو قد عاد. . . أين دياغو ورايلي؟

لا بدّ أن يكون رايلي قد طلب من دياغو إعطاء البرهان على كلامه، فمكث الاثنان خارجاً في انتظار الفجر. ولكن هذا التفسير لغيابهم يفترض أنّ رايلي يجهل الحقيقة، وأنّ خالقتنا كذبت عليه أيضاً. ولكن ماذا لو كان هذا الافتراض خطأً؟

عادت كريستي أيضاً مع عصابتها. لم تبدِ أيّ اهتمامٍ بمشهد الجثة المحروقة. قمت بعدّ سريع للموجودين في القبو في تلك

الساعة فوجدت أنّهم عشرون. الجميع كان في البيت ما عدا رايلي ودياغو. والشمس أوشكت على الشروق.

وفُتح الباب من جديد، فانتصبت واقفة على قدميّ.

دخل رايلي وأقفل الباب خلفه؛ وانحدر إلى القبو.

عاد وحده؛ لم يتبعه أحد.

قبل أن يتسنّى لي التفكير في ما أشاهده، علت صرخة وحشية من حنجرة رايلي تزمجر غضباً. كان قد رأى رماد الجثة وكادت عيناه أن تخرجا من محجريهما. تجمّد الجميع في أماكنهم ولم ينبس أحدٌ بكلمة. لقد سبق وشاهدنا فورات غضب رايلي، ولكنّها كانت المرّة الأولى التي يتصرّف فيها على هذا النحو.

رفع رايلي إحدى ذراعيه في الهواء ثمّ هبط بها بحركة دائرية وضرب بأصابعه الضخمة أحد مكبّرات الصوت الجديدة الذي اصطدم بالحائط المقابل وتحطّم. وانتشرت غيمة من بودرة دهان الجدران البيض في جوّ الغرفة. وبقدمه، قضى على ما تبقّى من الجهاز فاختنق صوت الموسيقى العالية المتقطّع. وبقفزةٍ واحدة وصل إلى راوول ووضع يده حول حنجرة هذا الأخير الذي صرخ: «لم أكن هنا... وصلت قبلك بلحظات!».

أطلق رايلي زمجرةً أخرى، وأرسل راوول ليرتطم بالحائط كما فعل بمكبّر الصوت. كانت جين وكريستي واقفتين، فقفزتا هاربتين من طريقه، ووقع راوول على الأرض بعد أن أحدث فجوة في الحائط.

ثم اقترب من كيفن وأمسكه من كتفه، وأمسك بيده اليمنى وانتزعها من مفصلها، فأطلق كيفن صرخة ألمٍ مدوّية. لم يتوقّف رايلي عند هذا الحدّ، بل صوّب إليه ركلةً فيما هو يشدّ بذراعه فاقتلعها من مكانها ثمّ كسرها عند المفصل، وارتفعت أصوات القطع والكسر والتمزيق المألوفة لدينا، ثمّ ضربه بأشلائه، فوقعت عليه... «بانغ، بانغ، بانغ»، كضربات المطرقة على الصخر...

صرخ رايلي متوجّهاً بكلامه إلى الجميع: «لماذا أنتم أغبياء إلى هذه الدرجة؟». ومدّ يده ليلتقط الصبيّ الأشقر «العنكبوتي»، رفيق كيفن، ولكنّ هذا الأخير قفز هارباً من طريقه.

«أليس في رؤوسكم ذرّة عقل؟».

ثمّ دفع بصبيٍّ يدعى دين أرضاً، فاصطدم هذا الأخير بجهاز الموسيقى فتكسّر. ثمّ أمسك بشعر فتاة تدعى ساره فاقتلع جزءاً كبيراً منه، والتقط إحدى أذنيها بأصابعه وسلخها من مكانها، فبكت الفتاة وصاحت من الألم.

من المؤكّد أنّ رايلي كان يعرّض حياته للخطر. فقد بدأ كلّ من في الغرفة يستعدّ للدفاع عن نفسه. وحتّى الأعداء التقليديّين، راوول وكريستي وجين، اجتمعوا معاً استعداداً لمقاومته. كما بدأت تتكوّن تكتّلات أخرى في زوايا المكان.

وفجأةً توقّف رايلي عن غليانه وأخذ نفساً عميقاً. لا أدري إن فعل ذلك نتيجة اكتشافه لما كان يجري، أو لأنّه انتهى من التنفيس عن غضبه. فرمى إلى سارة أذنها وشعرها، وانزوت هذه الأخيرة بعيداً عنه، تلعق أطراف الأذن بلعابها حتى تتمكّن

بمساعدة السمّ اللاّصق من إعادتها إلى مكانها. ولكن ليس من سبيل لاستعادة شعرها، فستبقى أجزاء من رأسها خالية من الشعر إلى الأبد.

«إسمعوا ما سأقوله لكم!». قال رايلي بنبرة هادئة نسبيّاً: «حياتنا كلّنا تقوم على إصغائكم لما سأقوله لكم وعلى التفكير الصحيح. سنموت جميعاً، كلّ واحد منكم وأنا أيضاً، إن لم تتصرّفوا بذكاء في الأيّام القليلة المقبلة».

لم يكن انتباه المجموعة مشتّتاً كما يكون عادةً في كلّ مرّة يفتح رايلي فمه ليلقي علينا مواعظه. كان الجميع صاغياً هذه المرّة.

«حان الوقت لتتحمّلوا مسؤولية حياتكم. أتظنون أن باستطاعتكم كسب قوتكم مجاناً؟ ألا تعتقدون أنّ للدماء التي تحصلون عليها من سياتل ثمناً؟».

فتح الجميع أعينهم جيّداً، وتبادل البعض نظرات الشكّ والتساؤل ولكنّ الخطر من استفحال أمر التكتلات ضدّ رايلي تراجع. وبلمحةٍ سريعة، لاحظت فرِدْ يدير رأسه نحوي، لكنّي لم أنظر إليه، فقد كان انتباهي مركّزاً على أمرين. أحدهما رايلي، تحسّباً من عودته إلى العنف. والباب عند أعلى الدرج، وكان لا يزال مغلقاً.

ثمّ توقّف رايلي ليطرح السؤال: «هل تسمعون جيّداً؟ هل تفهمون ما أقول؟». ولكنّه لم يلقَ جواباً أو حتى إشارةً بالرأس. فقد كان الجميع في حالٍ من الجمود التامّ. وتابع رايلي:

«سأكلّمكم عن حال الاستقرار المتزعزع حاليّاً. وسأحاول التبسيط لكي يفهم الجميع حتى بلداء العقول». ونادى راوول وكريستي لكي يقتربا منه.

ولكنّ راوول وكريستي، وكانا قد تحالفا منذ قليل ضدّه، لم يتحرّكا من مكانهما. وبقيت كريستي تصوّب النظر إليه، مكشّرةً عن أنيابها.

توقّعت من رايلي أن يليّن موقفه؛ أن يعتذر أو يسترضيهما، ثمّ أن يحاول إقناعهما بما يريد كما يفعل عادةً. لكنّ جميع تصرّفاته كانت مختلفة في تلك الساعة.

وتابع فوراً: «حسناً، سنحتاج إلى بعض القياديّين لكي ننجو من الموت، ويبدو لي أنّ كليكما لستما على قدر المسؤولية، وقد ظننت في السابق أنّكما تتمتعان ببعض المواهب. تقدمّ يا كيفن، وتقدّمي يا جين، لكي تترأسا المجموعة».

رفع كيفن رأسه مندهشاً، وكان قد انتهى للتوّ من ترميم ذراعه. وعلى الرّغم من الحذر الذي بدا على وجهه، فإنّ الإحساس المفاجئ بالرّضا تغلّب عليه، فوقف على قدميه متردّداً. صرّ راوول على أسنانه، ونظر إليه شزراً. أما جين فنظرت إلى كريستي كأنّها تنتظر إذناً منها.

وكان الباب عند أعلى الدرج، لا يزال مغلقاً.

وسأل رايلي كيفن بعصبية: «أنت أيضاً غير قادر على تحمّل المسؤولية؟».

عندئذٍ، وفيما بدأ كيفن يتقدّم بخطواتٍ بطيئة، قفز راوول

إلى الأمام، وبأقلّ من ثانية، وصل إلى جانب رايلي ووقف إلى يمينه بعد أن دفع بكيفن إلى الحائط من دون أيّ كلمة أو نقاش.

لم يكن من الصعب في تلك اللّحظة مشاهدة ظلّ الابتسامة الماكرة التي لمعت على وجه رايلي. حسناً، لم تكن الحيلة التي اعتمدها في التأثير على راوول خفيّة، ولكنّها ناجحة.

ثمّ تابع بحذاقة: «من التي ستترأسنا، جين أو كريستي؟».

كانت جين لا تزال تنتظر من كريستي إشارةً تسمح لها بالتقدّم؛ فحملقت هذه الأخيرة بها بسخط، وبحركة من رأسها، أرسلت شعرها الأشقر إلى الخلف، وبسرعة الرمح، وصلت إلى جانب رايلي ووقفت إلى يساره.

فقال رايلي بجديّة: «مرّت دقائق طويلة في التردّد، والوقت أمامنا قصير ولا يمكننا إضاعته باللّهو بعد الآن. كنت متساهلاً معكم في السابق، ولكن هذا الأمر انتهى اللّيلة».

وأدار رايلي عينيه في أرجاء الغرفة، ونظر في عينيّ كلٍّ منّا ليتأكّد من درجة استيعابنا لأقواله. وعندما التقت عيناي بعينيه، أمعنت النظر فيهما لمدّة ثوانٍ، ونظرت مجدّداً إلى الباب. ثمّ أعدت نظري إليه بسرعة منعاً لأيّ تفسير، إلاّ أنّه كان قد انتقل بنظره إلى غيري. فتساءلت إذا كان قد لاحظ ما كان يجول في رأسي... ولعلّه لم يلحظ وجودي كليّاً... في مخبأي الآمن بقرب فرِد.

وأعلن رايلي: «لدينا عدوّ». وسكت قليلاً لكي يتيح لهم المجال ليستوعبوا الخبر. لا شكّ أنّ الخبر وقع كالصاعقة على

معظم الحاضرين. لقد تعوّدوا أن يكون العدو راوول، أو كريستي بالنسبة إلى أصحاب راوول. حدود العالم بالنسبة إلينا هي هذا القبو، فكيف يكون لنا أعداء خارجه؟ مجرّد التفكير أنّ هناك في الوجود من هم أقوى منّا، وأنهم قادرون على تهديد حياتنا، غريبٌ بالنسبة إلى معظمنا وكان سيكون كذلك بالنسبة إليّ، لولا ما سمعته البارحة.

«عددٌ قليل منكم فحسب يفكّر بطريقة منطقية، ويعلم أنّ هناك مصّاصي دماء آخرين في العالم، ولسنا الوحيدون على وجه الأرض. هناك آخرون، وهم أقدم منّا، وأشدّ ذكاءً... وموهبةً؛ ويريدون منافستنا على الدّماء التي نقتات منها».

هسهس راوول بغضب، فتردّد غضبه كالصدى بين جميع أتباعه مساندةً ودعماً.

وتابع رايلي في استراتيجية التعبئة والتحريض: «نعم، هذه هي الحقيقة. في ما مضى، كانت سياتل تحت سيطرتهم، ولكنّهم انتقلوا إلى مكانٍ آخر. أمّا الآن، فقد ساورتهم الغيرة بعد أن اكتشفوا أنّنا نعيش في محيط هذه المدينة وننعم بدمائها السهلة. إنّهم يعلمون أنّنا أسيادها الآن ولكنّهم يريدون استعادتها. إنّهم قادمون ليحصلوا على ما يريدون؛ ويخطّطون للقضاء علينا واحداً بعد الآخر؛ ويتلذّذون بالولائم، بينما نحن نشتعل ونتحوّل إلى رماد!».

«لن نسمح بذلك أبداً!»، هدرت كريستي؛ فوافقها أتباعها وبعض أتباع راوول.

«ليس أمامنا عدد كبير من الخيارات». قال لنا رايلي، وتابع: «إن انتظرنا وصولهم إلينا، سنساعدهم في مهمّتهم؛ إذ يجب ألاّ ننسى أنّ هذه الأرض كانت لهم في السابق، ويعرفونها جيّداً. ويجب أن نعلم أيضاً أنّهم لا يرغبون في مواجهتنا دفعةً واحدة، لأنّنا نفوقهم عدداً وقوّة. يريدون مقاتلة كلّ واحدٍ منّا على انفراد؛ إنّهم يعرفون مكمن الضعف لدينا ويريدون استغلاله لمصلحتهم. هل أجد بينكم من يعرف أين يكمن ضعفنا؟». وأشار بيده إلى الرماد الذي كان قد غرق في صوف السجادة وضاعت معالمه. وانتظر الجواب بضع لحظات.

وعندما لم يسمع أيّ جواب أو تعليق... صرخ بنبرة استنكار: «إنّها الوحدة التي نفتقر إليها! كيف يمكننا الانتصار على الآخرين، ونحن مستمرّون في الاقتتال بيننا والقضاء على بعضنا؟». ورفس بقدمه السجادة فارتفعت موجة من الرماد الأسود في الجوّ. وقال: «هل يمكنكم أن تتخيّلوا كيف سيهزأون منّا؟ يظنّون أن القضاء علينا والسيطرة على دمائنا سهلٌ جدّاً، لأنّهم مقتنعون أنّنا نموت ضحية غبائنا».

وعلت زمجرة استنكار عارمة اشترك فيها أكثر من نصف الحاضرين.

فقال رايلي: «هل ستعملون معاً؟ أو نموت جميعاً؟».

وهدر راوول مجيباً: «سننتصر عليهم ولن نخيّب ظنّك أيها الرئيس».

فنظر إليه رايلي بعبوس، وقال: «لن تتمكّن من ذلك إن لم

تحسن السيطرة على نفسك، وتتعاون مع كلّ من في هذه الغرفة». ثمّ لكز بإبهام قدمه الرّماد من جديد، وتابع: «كلّ واحد تقضي عليه من الرفاق، قد يكون هو الذي كان سينقذ حياتك في الأوقات الصعبة. كلّما قتلت واحداً من جماعتك، تقدّم للأعداء هدية ثمينة، وكأنّك تقول لهم: تعالوا وتغلّبوا عليّ!».

تبادل راوول وكريستي وآخرون النظرات وكأنّهم يتقابلون لأوّل مرّة. لم تكن كلمة «جماعة» غريبة على مسامعنا؛ ولكنّنا لم نطلق هذه التسمية على مجموعتنا من قبل.

وما لبث أن فتح رايلي فمه ليتابع كلامه، حتى تسمّرت العيون عليه مجدّداً: «والآن، لأخبركم من هم أعداؤنا. إنّهم جماعة قديمة جدّاً، وأعني بذلك أنّهم يعيشون في هذا العالم منذ مئات السنين. أما سبب بقائهم أحياء طوال هذا الوقت، فهو أنّ لديهم مهارات ويعتمدون الحيلة في تحركاتهم. يريدون استعادة سياتل، وهم واثقون بنجاحهم لأنّهم علموا أنّ الجماعة التي ستواجههم تتألّف من زمرة من الأطفال غير المنظّمين، والذين لن يكلّفوهم عناء محاربتهم، لأنّهم سيتحاربون فيما بينهم».

وهدرت أصوات جديدة، تعبيراً عن مزيج غامض من المشاعر مثل الغضب والخوف والشكّ.

لاحظ رايلي ذلك، وتابع: «إنّهم لا يروننا **معاً**. إذا توحدنا معاً سنتمكّن من **سحقهم**. إذا استطاعوا رؤيتنا نحارب معاً، فسيصابون بالذعر. لن ننتظر قدومهم إلى هنا للقضاء علينا واحداً

بعد الآخر؛ بل سنذهب معاً لمهاجمتهم بعد أربعة أيّام».

أربعة أيّام؟ يبدو أنّ خالقتنا قرّرت عدم الانتظار حتى نهاية المهلة. ونظرت إلى الباب المقفل مجدّداً. أين هو دياغو؟

أثارت هذه المهلة القصيرة تعجّباً لدى البعض، وتخوّفاً لدى البعض الآخر.

«إنّهم لا ينتظرون أبداً رؤيتنا موحّدين ضدّهم. وها إنّي أزفّ إليكم الخبر المفرح الآن: عدد أعدائنا سبعة لا غير».

ومرّت برهة صمتٍ.

وصرخ راوول: «ماذا؟».

ونظرت كريستي إلى رايلي غير مصدّقة أذنيها، وسرت همسات بين الحاضرين تعبيراً عن الدهشة.

وعاد يعلو صوت رايلي زاجراً: «لا أمازحكم عندما أقول لكم إنّهم أقوياء. قوتهم تكمن في حكمتهم وقدرتهم على المراوغة. إذا تحرّكنا في الخفاء، واعتمدنا الخدعة، سنتمكّن من التفوّق عليهم. إذا تصرّفنا كما ينتظرون منّا، فسيربحون. أمّا إذا اعتمدنا خطّة خاصّة بنا فسنفاجئهم و...». وهنا لم يكمل الجملة، بل اكتفى بالابتسام.

تحمّس راوول، وانطلق يقول: «فلنذهب الآن، لنتخلّص منهم حالاً!».

فزجره رايلي: «تمهّل أيّها المجنون. التسرّع الأعمى لا يفيدنا».

في هذه اللّحظة، تدخّلت كريستي بعد أن صوّبت إلى

راوول نظرة استخفاف بتفكيره، وقالت لرايلي: «أخبرنا كلّ ما يجب أن نعرفه عنهم».

تمهّل رايلي قليلاً، وبدا وكأنّه يفكّر في الأسلوب الذي سيتابع فيه كلامه. وقال: «كيف نبدأ؟ حسناً... أظنّ أنّ أوّل ما يترتّب عليكم معرفته هو أنّكم لا تعرفون كلّ شيء عن مصّاصي الدماء حتى الآن. أردت عدم إرباككم في البداية، ولذلك لم أخبركم كلّ شيء. مثلاً، أنتم لا تعلمون الكثير عن الأمر الذي يُدعى (الموهبة). هناك مثالٌ واحدٌ بينكم للموهبة وهو فرِدْ».

ونظر الجميع إلى فرِدْ، أو أنّهم حاولوا النظر إليه. وبدا أنّ فرِدْ لم يكن مرتاحاً إلى التفات الجميع نحوه، فلجأ إلى موهبته على الفور، فتقلّصت ملامح رايلي حالاً، وأدار وجهه في الاتجاه المعاكس. من ناحيتي، كنت لا أشعر بأيّ تقزّز بعد.

وتابع رايلي متحاشياً ذكر اسم فرِدْ مرّةً ثانية: «نعم، كما تلاحظون، إنّ بيننا من يملك موهبة تتخطّى ما يملكه عادةً كلٌّ منّا من قوى عضلية وحسّية متفوّقة. المواهب ليست متوفّرة سوى لدى مصّاص دماء واحد بين كلّ خمسين تقريباً. ليست جميع المواهب متشابهة وهناك أنواع عدة منها، وبعضها متطوّر وقوي جدّاً».

ووصلت إلى مسامعي همسات البعض عن احتمال امتلاكهم لبعض المواهب. وبدا راوول متعالياً وكأنّه متأكّد من تميّزه. أمّا أنا، فكنت متيقّنة أنّ ليس من أفراد متميّزين في تلك الغرفة سوى ذلك الذي يقف على مقربة منّي.

ولكنّ رايلي، سرعان ما أعادهم إلى الواقع الجدّي: «امتلاك المواهب ليس موضوعاً للتسلية».

وبادرت كريستي بالسؤال: «الأعداء يتمتّعون بعدد من المواهب؛ أليس كذلك؟».

هزّ رايلي برأسه موافقاً. وقال: «بكلّ تأكيد، يسعدني أن أجد هنا من يفكّر منطقياً».

كشّر راوول عن أسنانه ساخراً، أمّا رايلي فتابع كلامه: «هذه الجماعة تتمتّع بمواهب خطيرة». ثمّ قال بما يشبه الهمس: «لديهم من يقرأ الأفكار». ونظر حوله ليقدّر مدى فهمنا لخطورة هذا الأمر، لكنّه لم يطمئن للنتيجة... فتبرّع بالشرح المستفيض: «فكّروا أيّها الرّفاق أنّ هذا الشخص قادرٌ على معرفة كلّ ما يجول في خواطركم. إن قمتم بهجوم معيّن على وجه المثال، سيعلم بالحركة التالية التي ستقومون بها، ويتحضّر للدفاع، حتّى قبل أن تعرفوا بها أنتم».

وقف الجميع مذهولاً ومتوتّراً وهو يتصوّر حدوث ذلك على أرض الواقع.

وتابع رايلي: «ولهذا السبب اعتمدنا الحيطة، أنا والمرأة التي خلقتكم».

وأمام ذكر تلك المرأة سرت موجة فزع وعصبية بين الجميع، عبّرت عنها كريستي بارتعادٍ ظاهر، وعبّر عنها راوول بتغيّرٍ واضح لملامح وجهه.

«إنّكم تجهلون اسمها، ولا تعرفون شكلها. وهذا من شأنه أن يحافظ على سلامتنا جميعاً. لأنّهم لو التقوا بأحدكم صدفةً، ولم يشكّوا بعلاقتكم بها، فقد لا يقتلوكم؛ أمّا لو علموا بعلاقتكم بها، فسوف يقضون عليكم بلا تردّد».

لم أقتنع حقّاً بما قاله رايلي، إذ إنّ تلك الاحتياطات لا تحمينا نحن بقدر ما تحميها. كان رايلي مدركاً لضعف حجّته، فسارع واستطرد في حديثه، قبل أن يتسنّى لنا الوقت الكافي لتحليل ذلك الجزء من كلامه.

«على كلّ حال، لم يعدّ الأمر يهمّنا كثيراً الآن، بعد أن قرّروا العودة إلى سياتل، لأنّنا سنفاجئهم ونقضي عليهم... حينئذٍ ستبقى المدينة بكاملها تحت سيطرتنا، إضافةً إلى أنّ أحداً لن تسوّل له نفسه بعد ذلك مجرّد التفكير في مهاجمتنا. لن يكون علينا تغطية آثارنا، وسيكون لدينا صيد وفير كلّ يوم، وفرة من الدماء لكلٍّ منكم كلّ ليلة. سننتقل للعيش في وسط سياتل، وسنكون أسيادها».

علت الدمدمات والزمجرات وكأنّها تصفيق وتأييد. عبّر الجميع عن مساندته لرايلي إلاّ أنا وفرِدْ. أما أسباب امتناع هذا الأخير عن التأييد، فلم يكن مفهوماً بالنسبة إليّ.

شخصيّاً، شعرت بأنّ خطاب رايلي كان يستند إلى الأكاذيب. وإن لم يكن الأمر كذلك، فجميع النتائج التي توصّلت إليها بتحليلي المنطقي ستكون غير صحيحة. قال رايلي إنّه بعد التغلّب على هذا العدوّ ستتمكّن من الصيد من دون حذر

أو حرص على تغطية آثار جرائمنا، ولكنّي ودياغو مقتنعان بأنّ هذه التدابير يجب أن تبقى سارية المفعول إلى الأبد حتى لا يكتشف الآدميون سرّ وجودنا. وفي الواقع، لولا حرص مصّاصي الدماء منذ أقدم العصور على إخفاء آثار أعمالهم، لكان وجودنا قد بات علماً أكيداً لدى الآدميّين.

لم يكن في وسعي التركيز لوقتٍ أطول، لأنّي عدت لألقي نظرةً إلى الباب الذي كان لا يزال مغلقاً. أين دياغو...؟

وعاد رايلي إلى الكلام: «سنقوم بهذا الأمر معاً. سأدرّبكم اليوم على بعض تقنيّات القتال. يجب أن تعلموا أنّ القتال ليس مجرّد أن نرمي الآخر إلى الأرض كما يفعل الأطفال. عندما يهبط الظلام، سنبدأ التمارين خارج المنزل. أريد منكم أن تكونوا جديّين، ولكن احذروا من إلحاق الأذى ببعضكم لأنّي أرفض أن أخسر عضواً إضافيّاً من هذه الجماعة. كلّ واحدٍ منّا، من دون استثناء، يحتاج إلى مساندة الآخرين. إذاً عليكم أن تتخلّوا عن البلاهة والرعونة. وإن فكّر أحدكم أنّه في غنى عن طاعتي، فهو مخطئ!». وسكت لحظةً عن الكلام واتخذت ملامح وجهه شكلاً آخر. وتابع قائلاً: «سيعلم من يخالفني فداحة الخطأ الذي اقترفه عندما أصطحبه **إليها**؛ وأمسك به أمامها لتمزّق ساقيه، وبعد ذلك وببطء تحرق أصابعه، وأذنيه وشفتيه، ولسانه وكلّ تلك الأعضاء غير الضرورية المعلّقة بجسده، **الواحد منها تلوَ الآخر**».

كلّنا مررنا بتجربة خسارة عضو من أعضائنا على الأقل،

وكلّنا اختبرنا نيران الاحتراق عندما تحوّلنا إلى مصّاصي دماء، لذلك ليس من الصعب أن نتخيّل ذلك العذاب. فنون التعذيب وتفاصيلها لم تكن الأكثر ترويعاً في تهديد رايلي، بل وجهه الهادئ والبارد، والابتسامة التي كانت ترتسم على شفتيه. أين الغضب الذي يظهر عادةً على وجهه ويلوّي ملامحه؟ هل نحن أمام رايلي جديد أم ماذا؟

لا بدّ أنّ شيئاً مهمّاً قد حدث وغيّره حتى ازدادت قسوته إلى هذه الدرجة؛ لا يمكنني تصوّر ما الذي حدث في ليلة واحدة وأحدث هذه القدرة لديه على التلذّذ في تعذيب الآخرين، والتكلّم عن تلك الأمور المرعبة ببرود وابتسام!

أشحت نظري عنه قليلاً، وإذا بي ألاحظ أنّ راوول كان يبتسم أيضاً وكأنّه أعجب بأسلوب التهديد الجديد، وجادٌّ في تعلّمه.

«الآن، تعالوا ننظّم الفرق». قال رايلي بعد أن عادت ملامح وجهه إلى طبيعتها. «كريستي، راوول، ليؤلّف كلّ منكما فرقته من أتباعه واقتسما من يتبقّى بالتساوي. لا أريد نزاعاً. أظهرا لي قدرتكما على تنفيذ هذا الأمر بحنكة. هيّا!».

ثمّ سار مبتعداً عن الاثنين، متجاهلاً أنّ التشاحن كان قد بدأ بينهما في اللّحظة عينها، ودار حول الغرفة، وكان يمسك البعض بأكتافه، ويدفعهم نحو أحد القائدين. لم أتنبّه للتوّ أنّه كان متوجّهاً نحوي لأنّه مشى بخطٍّ متعرّج طويل.

وقال: «بري!» مواجهاً صعوبة في النظر إلى مكان وقوفي.

شعرت بالخوف يخترق عظامي. لا شكّ أنّه قد اكتشف رائحتي أمام بيتها، نهايتي باتت قريبة.

وعاد ليقول: «بري؟» ولكن بصوتٍ رقيق هذه المرّة، ذكّرني بالطريقة التي تكلّم إليّ بها في أوّل مرّة رأيته، عندما كان يتصرّف بلطفٍ بالغ. ثمّ تابع بصوتٍ خفيض جدّاً: «لقد وعدت دياغو بأن أبلّغك رسالة. لقد طلب منّي أن أقول لك إنّ الأمر يشبه مغامرات نينجا. هل تفهمين معنى هذه الرسالة؟».

لم يكن قادراً على النظر إليّ، ولكنّه كان يقترب منّي.

فتمتمت : «دياغو؟».

ابتسم رايلي قليلاً، وقال: «هل نتكلّم قليلاً؟». وأشار برأسه نحو الباب، وأضاف: «لقد تأكّدت من أنّ جميع النوافذ في الطابق العلوي مقفلة، والمكان مظلم وآمن».

تردّدت قبل الابتعاد عن فردْ فهو ملاذ الحماية بالنسبة إليّ. ولكن كان لا بدّ أن أعلم شيئاً عن دياغو وأستمع إلى الرسالة التي حمّلها لرايلي. وفكّرت أنّه كان يجب أن أبقى معه وأن نقابل رايلي معاً.

تبعته، وقطعنا الغرفة، ثمّ صعدنا الدرج إلى المطبخ وكانت النوافذ مقفلة كما وعدني. ثمّ أشار إليّ بالسير وراءه في ممرٍّ طويل حتى وصلنا إلى مرأب السيارات.

«أنت شجاعة جدّاً، أو تثقين بي كثيراً. كنت أظنّ أنّي سألاقي صعوبةً في إقناعك للصعود إلى هنا خلال النهار».

تذكّرت في تلك اللّحظة أنّه كان عليّ أن أدّعي الحذر أو الفزع من الضوء.

رفعت كتفيّ بعدم اكتراث.

وسألني: «أرى أنّ بينك وبين دياغو علاقة وطيدة، أليس كذلك؟».

رفعت كتفيّ مجدّداً، وهمست: «لقد أنقذ حياتي».

هزّ رايلي رأسه قليلاً وكأنّه يوافق على ما أقول، ولكنّه لم يكن واضحاً. فتساءلت إن كان يصدّقني. هل كان يعتقد أنّي لا زلت أخاف من النور؟

وقال: «دياغو هو الأفضل. إنّه الأذكى بينهم جميعاً».

وافقته الرأي بإيماءة سريعة.

وتابع: «تكلّمنا معاً عن الحالة التي نواجهها وقرّرنا أنّنا بحاجة إلى المراقبة ودراسة الطريق لكي لا نتعرّض للمفاجآت. هو الوحيد الذي أثق به ليقوم بهذا الدور الاستكشافي». وهزّ برأسه آسفاً: «كنت أتمنّى أن يكون لديّ اثنان مثله. راوول سريع الغضب، وكريستي غير قادرة على التفكير خارج نطاق ذاتها، ما يمنعها من فهم الوضع بجميع أبعاده، لكنّهما الأفضل بين الموجودين، ولا بدّ من الاعتماد عليهما. قال لي دياغو إنّك ذكيّة أيضاً».

لم أنبس بكلمة. فقد كنت أجهل مدى معرفته بما جرى معنا.

وقال: «ألتمس مساعدتك بالنسبة إلى فردْ. واو! هذا الولد

يتمتّع بقوّة عظيمة، حتّى إنّي لم أتمكّن من النظر إلى وجهه هذه الليلة».

أجبته بهزّة رأس لا غير.

«تصوّري لو لم يستطع أعداؤنا حتّى النظر إلينا، كم يكون انتصارنا عليهم سهلاً!».

لم أرَ فرِد مكترثاً لأمر الجماعة، وفكّرت أنّه لن يتحمّس لاستخدام موهبته ضدّ العدوّ على النحو الذي وصفه رايلي. هل سيهمّه أمر مساعدتنا. . .؟ على كلّ حال، لم أجب رايلي بأيّ كلمة.

«إنّك تجلسين بقربه في معظم الأوقات».

أجبت: «ليس هذا بالأمر السهل، ولكن لا أحد يزعجني عندما أكون في ذلك المكان».

زمّ رايلي شفتيه وهزّ برأسه: «إنّك فتاة ذكيّة، كما قال دياغو».

فقلت: «أين هو دياغو؟».

خرج السؤال من فمي رغماً عنّي. وانتظرت الجواب، محاولةً من دون جدوى إخفاء قلقي بشأنه.

«الوقت ضيّق. لقد أرسلته جنوباً، مباشرةً بعد معرفتي بنيّات العدوّ. نحتاج إلى من يعلمنا بسرعة عن أيّ هجوم يقرّره العدوّ قبل وقت وقوعه. وسيلاقينا دياغو إلى ساحة المعركة».

حاولت تخيّل مكان دياغو في ذلك الوقت. ليتني إلى جانبه

لأقنعه بعدم الوقوف إلى جانب رايلي وتعريض حياته للخطر. لكنّي شككت في قدرتي على تغيير أيّ شيء لأنّ علاقة دياغو برايلي قويّة كما كنت أخشى.

«طلب منّي دياغو أن أقول لكِ شيئاً».

طارت نظراتي فوق وجهه بسرعة تفضح من غير قصد تشوّقي لسماع أيّ شيء من جانب دياغو.

وقال رايلي: «حمّلني دياغو رسالة شفويّة لم أفهم شيئاً منها. قال: (أخبر بري بأنّني اتّخذت القرار حول طريقة المصافحة. وسوف أطلعها عليها عندما نلتقي بعد أربعة أيّام). أنا لا أفهم ماذا يعني، هل أنتِ تفهمين؟».

حاولت أن أدّعي عدم الاهتمام. وقلت: «أذكر قوله إنّه يفتّش عن طريقة مصافحة سرّية قبل الدخول إلى كهفه، شيٌ أشبه بكلمة السرّ. كان ذلك مجرّد مزاح، ولكن لا أدري بالضبط ماذا يقصد الآن».

ظهر رايلي وكأنّه فوجئ بقلّة اكتراثي، فقال: «كم أنتَ قليل الحظ يا دياغو!».

قلت: «ماذا؟».

«أظنّ أنّ هذا الشابّ يحبّكِ أكثر ممّا تحبّينه بأشواط».

حوّلت نظري عنه، والأفكار تتقاذفني. هل حمّل دياغو هذه الرسالة إلى رايلي ليقول لي إنّ باستطاعتي الوثوق بهذا الأخير؟ لكنّه لم يقل لرايلي عن اكتشافنا معاً لمفعول الشمس الحقيقي. إلاّ أنّه وضع ثقته برايلي إلى درجة إطلاعه على العلاقة بيننا.

ولكن أظنّ أنّه من الأفضل لي أن ألزم الحذر. فقد حدثت تغيّرات كثيرة مؤخّراً.

«لا تتخلّي عنه يا بري. إنّه أفضل من الجميع كما قلت لك. أعطِه فرصة أخرى».

كان رايلي مهتمّاً بإعطائي نصائح بالحبّ. ما هذه الغرابة؟ أومأت برأسي وقلت: «بالتأكيد».

«حاولي التكلّم إلى فرِدْ، وحاولي إقناعه بالمشاركة».

رفعت كتفيّ وقلت: «سأفعل ما بوسعي».

ابتسم رايلي: «عظيم! سأكلّمك وأسألك عن نتيجة جهودك قبل الانطلاق. وسأفعل ذلك بأسلوب طبيعي ولا يلفت النظر. لا أريد أن يظنّ فرِد بأنّي أتآمر عليه».

«حسناً».

وأشار رايلي بأن أتبعه لنعود إلى القبو.

استمرّ التدريب طيلة النهار ولكنّي لم أشارك فيه. فبعد أن توجّه رايلي ليتكلّم إلى القائدين اللّذين عيّنهما، عدتّ إلى مكاني المعتاد إلى جانب فرِد. كان راوول وكريستي قد نظّما الموجودين في أربعة فرق. لم يطلب أيّهما من فرِد الانضمام إلى فريقه أو أنّه لم يكترث إليهما، وربّما أنّهما لم يكتشفا وجوده في الغرفة. كنت قادرة على رؤيته بوضوح، لأنّه الوحيد الذي ما زال جالساً في مكانه؛ وكأنّه فيلٌ أشقر اللّون يجثم في زاوية القبو.

لم أشعر برغبة الانضمام إلى أيّ من الفرق، فاكتفيت

بالمراقبة. ولكن أحداً لم يتنبّه لوجودنا، وكأنّنا وبفضل موهبة فرِد، أصبحنا غير منظورين. لكنّ ذلك التميّز بذاته أحرجني. كنت أتمنّى ألا أرى نفسي، فأصدّق أنّي لست موجودة. ولكنّي ما لبثت أن تعودتّ على الفكرة، فتراجعت مخاوفي وشعرت بالراحة.

راقبت التدريبات بدقّة. كنت أريد تعلّم كلّ الأمور ليس رغبةً في القتال، إذ إنّ رغبتي الأساسية هي إيجاد دياغو والانفصال عن الجماعة. ولكن، ماذا لو أصرّ دياغو على المشاركة في القتال؟ أو ماذا لو اضطررنا للقتال من أجل الانفصال؟ من الأفضل إذاً تعلّم فنون المعركة.

لم يسأل أحدُ عن دياغو سوى مرّة واحدة. والسائل كان كيفن، وأظنّ أنّ راوول هو الذي دفعه لطرح السؤال.

«هل احترق دياغو في الشمس هذه المرّة؟». سأل كيفن بلهجةٍ تصطنع السخرية.

«دياغو موجودٌ **معها**». أجاب رايلي، ولم يجرؤ أحدٌ على السؤال: «مع من؟». ثمّ أضاف: «إنّه يتولّى أمر حراستها».

سرت ارتجافة خوف بين معظمهم، ولم يجرؤ أحدٌ على السؤال عن دياغو ثانيةً.

هل كان حقّاً معها؟ ارتعدت من الفكرة. ربّما قال رايلي ذلك لأنّه لا يريد الافصاح عن المهمّة الحقيقية التي يقوم بها دياغو خوفاً من إثارة مشاعر الغيرة لدى راوول، إذ يرفض هذا الأخير ألا يكون الأوّل على لائحة أعوان رايلي؛ وليس من

مصلحة رايلي في هذه المرحلة سوى تغذية غروره إلى أقصى حدّ. لم يكن أمامي سبيل للتأكّد من صحّة، أو عدم صحة ما قاله رايلي، لذا، فضّلت السكوت كالعادة، وتابعت المراقبة.

ولكنّ المراقبة كانت مملّة، وتسبّب العطش. رفض رايلي إعطاء جيشه أيّ فرصة للراحة أو الصيد طيلة ثلاثة أيّام وليلتين. كان إخفاء بقائي خارج المجموعة صعباً خلال النهار، حيث الجميع في الداخل. ولكنّ الاكتظاظ في الداخل كان يسهّل مهمّة رايلي في الحدّ من تفاقم الاصطدامات. في اللّيل، خارج البيت، كان لدى الجميع حريّة أكبر في التحرّك والاصطدام، الأمر الذي أبقى رايلي مشغولاً في جمع الأعضاء المبتورة وإعادتها بسرعة إلى أصحابها. كان يحتفظ بهدوئه إضافةً إلى أنّه استطاع هذه المرّة جمع كلّ الولاّعات الموجودة في البيت وإخفاءها عن الأنظار. لم أتوقّع أن تمرّ الأيّام الأربعة من دون خسارة واحد أو أكثر من أعضاء الجماعة، ولكنّ رايلي كان يسيطر على الوضع بإحكام.

ولكنّه أيضاً كان يعتمد على التكرار المملّ؛ كان يعيد قول التعليمات مرّات ومرّات، وكأنّ جميع السامعين على درجة عالية من الغباء...

تعاونوا، إحفظوا ظهركم، لا تهاجموا وجهاً لوجه؛

تعاونوا، إحفظوا ظهركم، لا تهاجموا وجهاً لوجه؛

تعاونوا، إحفظوا ظهركم، لا تهاجموا وجهاً لوجه؛

كنت مرتاحة لوجودي إلى جانب فرِدْ، ولقدرتي على

المراقبة معه من بعيد؛ عوضاً عن الانخراط الفعلي في ذلك التدريب المملّ.

طريقة رايلي بالتكرار تذكّر بالطريقة التي استخدمها ليزرع فينا الرعب من التعرّض لنور الشمس.

كان التدريب مملاً إلى درجة أنّ فرِد قرّر بعد عشر ساعاتٍ من المراقبة، أن يتسلّى بورق الشدّة.

بدأ فرِدْ يلعب بمفرده بالورق، ورحت أراقبه. كانت مراقبته مسلّية أكثر من مشاهدة الأخطاء التي يرتكبها المتدرّبون مراراً وتكراراً.

وبعد مرور اثنتي عشرة ساعة إضافيّة، وكنّا في الداخل من جديد، لكزت ذراع فرِد لكي يحرّك إحدى الأوراق بطريقة معيّنة، ففعل. وبعد ذلك، دعاني للاشتراك في اللّعبة. لم نتبادل الكلام أبداً، لكنّ فرِد كان يبتسم بين الحين والآخر.

لم يعطنا رايلي أيّ فرصةٍ للصيد، فزاد العطش من صعوبة التدريب، واحتدمت النزاعات بكثرة ولأسبابٍ تافهة. ازدادت أوامر رايلي حدّةً، وراح يقطع أعضاء من يغضبه. كنت أحاول بقدر الامكان تناسي العطش الذي بات يشعل حنجرتي، وقلت في نفسي إنّ رايلي يحسّ بالعطش أيضاً، ولا بدّ من حلٍّ قريب. أما فرِد، فكانت ملامحه مشدودة.

بدأت اللّيلة الثالثة، وكنت كلّما فكرت بالساعات الطويلة المتبقية قبل انتهاء المهلة، تعتصر معدتي الخاوية من شدّة العطش. وإذا برايلي يأمر فجأةً بالتوقّف عن كلّ نشاط.

وصرخ: «إهدأوا واصغوا إليّ». عاد حينئذٍ كلّ واحدٍ إلى مكانه، ومع رفاقه السابقين، فاستنتجت أنّ التدريبات لم تغيّر شيئاً من التكتلات السابقة. وضع فرِد الورق في جيبه الخلفي وانتصب واقفاً؛ ووقفت إلى جانبه، آملة في أن تستمرّ الهالة المقزّزة التي يحيط بها نفسه في إخفائي عن الأنظار.

وقال رايلي: «لا بأس بالجهود التي بذلتموها حتى الآن. يحقّ لكم الليلة أن تخرجوا وتشربوا من الدماء ما طاب لكم؛ فغداً سترغبون في الاستعانة بكل قوّتكم في المعركة».

علت زمجرات الطمأنينة من كل جانب.

وتابع رايلي: «لم أستخدم لفظة (ترغبون) عوضاً عن (تحتاجون) بالصدفة أو من غير سبب، بل لسبب رئيس وهو أنّكم اجتهدتم في التدريبات وفي تشغيل أدمغتكم، ولذلك أتوقّع أنّكم ستفاجئوا العدوّ بقدراتكم، وتكون نهايتهم على أيديكم سهلة وسريعة».

هدرت كريستي وهدر راوول، وتبعهما على الفور جميع أتباعهما. لفتني مظهر التجاوب الموحّد فكأنّهم اكتسبوا بعض الصفات النظامية التي تتحلّى بها الجيوش. لقد بدوا لي في تلك اللحظة أنّهم أعضاء في مؤسّسة موحّدة... ولكنّي، أنا وفرِد، كنّا نمثّل حالة الاستثناء الفاضح للقاعدة. إلاّ أنّ رايلي وحده كان يبدو متنبّهاً لوجودنا خارج المجموعة، بدليل أنّه كان يحاول النظر في اتجاهنا بين الحين والآخر؛ وكأنّ الصعوبة التي كان يواجهها في النظر إلينا كانت تزيد في اطمئنانه إلى أنّ موهبة فرِد

لا تزال فاعلة. ولكنّه لم يبدِ انزعاجاً لعدم مشاركتنا الفعلية في ذلك الوقت على الأقلّ.

وقال راوول: «اللّقاء الحاسم غداً في الليل، أليس كذلك أيّها الرئيس؟».

أجاب رايلي: «نعم!». وارتسمت ابتسامة غريبة على وجهه سرعان ما قاومها. لم يَلحظ أحد ذلك، ما عدا فرِد الذي نظر إليّ ورفع حاجبه؛ فحاولت تجاهل الموضوع.

وسأل رايلي الجميع: «هل أنتم الآن على استعداد لنيل المكافأة؟».

فهدر جيشه الصغير إيجاباً.

«الليلة سوف تتذوقون طعم العالم الجديد، الذي ستنعمون به بعد أن نتخلّص من منافسينا إلى الأبد. إتبعوني!».

قفز رايلي إلى الأمام، فتبعه مباشرةً راوول وفريقه. انطلقت كريستي وفريقها وراءهم، ولكنّهم راحوا يشقّون طريقهم في الوسط لكي يتمكنوا من الوصول إلى الخطّ الأمامي قبل الآخرين.

فجأةً، سُمعت جأرةٌ مخيفة صدرت من رايلي، وقد وصل إلى أعلى إحدى الأشجار الأمامية: «لا تدعوني أغيّر رأيي فأترككم تعطشون إلى ما لا نهاية».

وفي الحال، صرخت كريستي بفريقها، فغيّروا خطّهم وعادوا مرغمين إلى مكانهم وراء فريق راوول. أمّا فرِد وأنا،

فانتظرنا اختفاء آخر واحدٍ منهم عن الأنظار، عندئذٍ مدّ فرد ذراعه إلى الأمام مذكّراً بالبروتوكول الاجتماعي «السيدات يسرن في المقدّمة!»، مشيراً إليّ لأنطلق. وانطلقت أجري وراء الجيش.

كان الجميع قد سبقونا بمسافة غير قليلة ولكنّ اقتفاء أثرهم كان سهلاً، ورحنا نركض معاً بصمت. تساءلت في نفسي عمّا كان يدور في رأس فردٍ من أفكار، ولكنّني توقّعت أنّ يهيمن العطش على أفكاره في تلك الساعة مثلي.

التقينا بالآخرين بعد نحو خمس دقائق، ولكنّنا حافظنا على بعض المسافة التي تفصلنا عنهم. كان الجيش يتحرّك بهدوء ملفت جدّاً؛ فبدا عليهم التركيز وحتى... الالتزام بالنظام. تمنّيت في تلك اللّحظة لو بدأ رايلي بتدريباته من قبل، لأفاد ذلك في تحسين مستوى التعاطي بينهم قليلاً.

قطعنا طريقاً دوليّاً خالياً إلى الغابة. وبعد ذلك، وصلنا إلى الشاطئ. بدت المياه هادئة وكنّا قد قطعنا مسافة كبيرة في اتجاه الشمال، فنحن على الأرجح أمام المضيق. لم نقترب في طريقنا البرّية من أيّ وحدة سكنية، وكان من الطبيعي أن يرسم رايلي خطّ مرورنا بهذه الطريقة، فنحن في غاية العطش والتوتّر، وأوّل فرصةٍ سانحةٍ كانت ستحوّل مؤسستنا النظامية إلى فوضى عارمة.

إنّها أوّل مرّة يخرج فيها الجميع للصيد معاً. كنت متأكّدة من خطورة هذا الأمر، خصوصاً عندما يعود إلى ذاكرتي مشهد كيفن ورفيقه الأشقر ونزاعهم المميت حول المرأة التي كانت في السيارة في تلك الليلة حين تكلّمت إلى دياغو لأوّل مرّة. من

الضروري أن يكون رايلي قد حضّر لنا عدداً كبيراً من الأجساد، وإلاّ فستقع حربٌ داخلية بينهم الليلة لا محال.

توقّف رايلي عند حافّة الماء، وقال: «لا تتراجعوا في الحصول على أكبر قدر من الدماء. أريدكم أن تتغذوا جيّداً، وأن تصلوا إلى ذروة قواكم».

وبخفّة غطس تحت سطح الماء، فأطلق الآخرون أصواتاً حماسية وغطسوا وراءه. لم نتأخّر أنا وفرِد هذه المرّة عن اللّحاق بهم، إذ قد يصبح من الصعب علينا لو تأخرنا اقتفاء رائحتهم تحت الماء. شعرت وكأنّ فرِد كان جاهزاً للانفصال عنهم إذا ما اكتشف أنّ الصيد ليس وفيراً. يبدو أنّ ثقته برايلي لم تكن قويّة.

لم نكن قد قطعنا مسافة كبيرة تحت الماء، عندما لاحظنا أفراد الجماعة يصعدون. كنّا أنا وفرِد آخر من ظهر على سطح الماء، ولاحظت أنّ رايلي لم يبدأ كلامه إلاّ بعد أن شاهد رؤوسنا فوق الماء؛ فكأنّه كان ينتظرنا نحن الاثنين ليتكلّم، وكأنّه أيضاً كان يعي وجود فرِد أكثر من الآخرين.

«ها هي قد وصلت!». قال رايلي ملوّحاً بذراعه نحو ناقلة ركّاب كانت تتوجه من كندا نحو الجنوب، ويبدو أنّها كانت تنقل فوج الركّاب الأخير في تلك الليلة. وتابع رايلي: «إمهلوني بضع ثوانٍ لا غير، وعندما ينطفئ النور، تقدّموا. كلّ ما فيها لكم ومن غير منازع».

سرت وشوشات الفرح بين الجميع وعلت قهقهة أحدهم. وانطلق رايلي كالرمح نحو السفينة وما هي إلاّ ثوانٍ حتى شاهدناه

على متنها، متوجّهاً نحو برج القيادة في القسم الأعلى منها. فتوقّعت أنّ أوّل ما سيفعله هو تعطيل جهاز الراديو. لا أؤمن بأنّنا إذا نجحنا غداً في سحق عدوّنا سينتهي الحذر من تفشّي سرّ وجودنا لدى الآدميين، كما قال رايلي... بل أعتقد أنّ على الناس البقاء في جهلٍ عن وجودنا لفترةٍ طويلة جدّاً؛ أو على الأقلّ حتى تحين فرصتنا للقضاء عليهم.

رطم رايلي حاجزاً زجاجياً ضخماً بقدمه ودخل إلى مركز القيادة حيث اختفى عن أنظارنا؛ ثمّ، وبعد أقلّ من دقيقة، انطفأت الأنوار.

كان راوول قد تبع رايلي مباشرةً، وأظنّ أنّه سبح وراءه إنّما تحت الماء كي لا يلفت الأنظار. ولكن ما لبث الجميع أن اندفع نحو الوليمة الواعدة، وهاجت المياه وأزبدت بفعل تحرّكهم وكأنّ جيشاً من الحيتان اخترقها.

سبحت إلى جانب فرِدْ بسرعة معتدلة وراءهم. كنت أكاد أن أضحك من الطريقة التي تحرّكنا بها معاً، فكأنّنا زوجان عجوزان يتصرّفان بتناغم تامّ، ولكن من دون تبادل الكلام.

قفزنا إلى السفينة بعد بضع ثوانٍ، وكانت رائحة الدمّ الساخن قد انتشرت في الهواء، ومعها زعقات الذعر الحادّة. رائحة الدماء الشهية جعلتني أعي درجة عطشي العالية، لكنّ الوقت لم يكن مؤاتياً للتفكير، فكلّ ما في داخلي من طاقة كان موجّهاً إلى اقتناص الطرائد، وإطفاء النيران المشتعلة في حنجرتي.

عندما انتهى كلّ شيء ولم يبقَ على متن تلك السفينة قلبٌ نابض، توقّعت أنّي شربت من الدماء في تلك الليلة ثلاثة أضعاف ما أشربه عادةً لإطفاء ظمأي. كانت تلك الدماء نظيفة وزكيّة؛ فركّاب تلك الناقلة، على الأرجح، لم يتعاطوا المخدّرات. نظرت إلى راوول فرأيته يقف أمام تلّةٍ من الجثث، عندئذٍ اتّضح لي أنّ ما شربته ضئيلٌ بالقياس مع ما شربه بعض الآخرين.

ضحك راوول عالياً وضحك الجميع للتعبير عن فرحهم. وصعد صوت كريستي ليقول: «ليعش رايلي! لقد شربنا نخبه...!». وضجّ كورسٌ من الأصوات الخشنة تهليلاً، فحسبت نفسي أستمع إلى مجموعة من السكارى المترنّحين بجذل.

وفجأةً رأيت جين وكيفن يصعدان من المياه، ويبشّران رايلي: «لم نترك واحداً منهم يهرب. قضينا عليهم جميعهم». لقد فاتتني ملاحظة أنّ بعض الركّاب قد حاول الهرب.

حاولت التفتيش عن فرِدْ، لكنّي لم أجده بسرعة. وأخيراً تنبّهت إلى أنّي أواجه صعوبة في النظر إلى الزاوية وراء برّاد المشروبات، فتوجّهت فوراً إلى هناك. شعرت وأنا أسير نحوه، بدوارٍ يدعو إلى التقيّؤ فظننته دوار البحر، ولكنّه سرعان ما تلاشى عندما رأيت فرِد واقفاً إلى جانب النافذة. لاقاني بابتسامة، ونظر في اتجاهٍ آخر. تبعت خطّ بصره فوجدته يراقب رايلي.

«حسناً أيّها الأولاد»، قال رايلي، «لقد تذوّقتم حلو الحياة الذي ينتظركم في ما بعد. أمّا الآن فعلينا إتمام عملٍ معيّن».

وهدرت المجموعة مهلّلةً.

«بقي لديّ ثلاثة أمور لأخبركم عنها، وواحدها يتعلّق بحصولكم على الحلوى بعد الوليمة. الآن، تعالوا نغرق هذه الناقلة، ونعود إلى البيت».

واندفع الجيش إلى إتمام المهمّة بحماسة بالغة. خرجت مع فرِد من النافذة وراقبنا ما يجري من مسافة قريبة. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى سمعنا قرقعة المعادن ورأينا وسط السفينة يتزعزع وينهار، ثمّ تحرّك الجزء الأمامي، وبعده المؤخرة، وانقلبا رأساً على عقب قبل أن يغرقا بفارق ثوانٍ بين الجزأين. وإذا بجيش «الحيتان» يخترق المياه من جديد، فتحرّكنا قبلهم نحو الشاطئ.

وركضنا نحو البيت مع الآخرين، ولكنّنا حافظنا على تلك المسافة بيننا وبينهم. كان فرِد ينظر إليّ من وقتٍ إلى آخر، وكأنّه يريد أن يقول شيئاً، ولكن سرعان ما كان يغيّر رأيه.

حاول رايلي منذ وصولنا إلى البيت استعادة الأجواء الجديّة، ولكنّ الأمر لم يكن سهلاً حتى بعد مرور بضع ساعات على العودة. وكان يتحفّز هذه المرّة ليس للتحريض على القتال، بل لبثّ روح الثقة بالنفس بين أفراد جيشه. كان رايلي هذه اللّيلة بطلاً في نظر الجميع. ولكنّه، لو لم يصدق وعوده بعد انتهاء المعركة، كما كنت أتوقّع، سيكون من الصعب عليه ضبطهم

ضمن قوانين وشروط، وخصوصاً بعد هذه الليلة من الصيد السهل الوفير.

وأخيراً، وبعد نحو ساعة من طلوع الشمس، كان الجميع هادئاً وحاضراً للاستماع إلى كل ما يريد رايلي قوله.

صعد رايلي إلى منتصف الدرج، وشرع في الكلام:

«هناك ثلاثة أمور كما أخبرتكم. أوّلاً، يجب الانتباه إلى عدم الوقوع في الخطأ ومهاجمة جماعة أخرى من مصّاصي الدماء، غير العدوّ الذي يستهدفنا. فنحن لو التقينا صدفةً بجماعة أخرى واشتبكنا معهم، فسوف يتعرّف أعداؤنا الحقيقيّون إلى مخطّطنا ونفشل في مفاجأتهم. هناك أمران يميّزان الأعداء، ويمكن التعرّف إليهما بسهولة. الأمر الأوّل وهو اختلاف شكلهم؛ إنّ لون عيونهم أصفر».

«أصفر؟». قال راوول بنبرة اشمئزاز.

«سبق وقلت لكم إنّ معلومات كثيرة تنقصكم حول عالم مصّاصي الدماء. أخبرتكم أنّ جماعة الأعداء هم قدماء. لقد اصفرّت عيونهم وضعفت بفعل التقدّم في السنّ. وهذا أمرٌ آخر لصالحنا. ولكنْ، هناك آخرون من القدماء أيضاً. ولكي نمنع وقوع الخطأ نهائيّاً، يجب التعرّف إلى إشارة أخرى تميّز أعداءنا، وهنا تكمن الحلوى التي أخبرتكم عنها ووعدتكم بها». وابتسم رايلي بخبث، وانتظر قليلاً قبل أن يتابع، زيادةً في التشويق. ثم قال منبّهاً: «لن يكون من السهل عليكم فهم ما سأقوله الآن. . . أنا نفسي لا أفهمه، ولكنّي شاهدته بأمّ عيني. إنّ أعداءنا، ومن

فرط تقدّمهم في السنّ، باتوا على مستوىً عالٍ من الليونة إلى درجة أنّ هناك فتاة تعيش معهم ويعتنون بها مثل حيوان آدمي أليف».

واجه الجميع كلامه بصمت وذهول، غير مصدّقين ما تسمعه آذانهم.

«أعلم أنّ الأمر صعب التصديق، ولكنّه حقيقي. سنتعرّف إلى عدوّنا بكلّ تأكيد من خلال تلك الفتاة التي ترافقهم».

وسألت كريستي: «يعني... ماذا، هل يأخذون معهم وجبات طعام إلى كلّ مكان؟ هل هذا ما يفعلون؟».

«كلاّ، إنّهم يصطحبون الفتاة ذاتها دائماً، ولا يفكّرون في قتلها. لا أعلم كيف يتمكّنون من ذلك، ولماذا يفعلونه. ربّما يريدون التبجّح بمستوى السيطرة على النفس الذي بلغوه؛ أو أنّهم يريدون الظهور بشكلٍ أقوى، أو وبكلّ بساطة، بشكلٍ مختلف عن الآخرين. إنّي لا أفهم قصدهم، ولكنّي رأيتها. وأكثر من ذلك، فقد تنشّقت رائحتها».

وبحركة بطيئة ودراماتيكية، مدّ رايلي يده إلى جيب سترته وأخرج كيساً بلاستيكيّاً، وأخرج منه قطعة قماشٍ حمراء كانت مطوية في داخله.

ثمّ قال: «قمت ببعض الدوريّات الاستكشافية خلال الأسابيع الماضية، لأراقب أصحاب العيون الصفر وتحرّكاتهم في اتجاه منطقتنا». وتوقّف ليرمينا بنظرة أبويّة، ثمّ يتابع: «تهمّني سلامة أولادي، وأنتم تعرفون ذلك... وعندما لاحظت

استعدادهم لمهاجمتنا، سرقت هذه القطعة»، وأشار إلى الكيس الذي في يده، «لكي تدلّنا رائحتها إلى مكانهم. أريد منكم جميعاً التعرّف إلى هذه الرائحة».

وأعطى الكيس إلى راوول، ففتحه هذا الأخير وتنشّق الرائحة التي في داخله، ثم رمق رايلي بنظرةٍ تنمّ عن الإعجاب.

«أعلم ذلك»، قال رايلي. «رائحة مذهلة!».

ومدّ راوول يده ليعطي الكيس إلى كيفن، وهو يزمّ عينيه مفكّراً.

ومرّ الكيس من يد مصّاص دماءٍ إلى يد آخر، وجحظت عيون الجميع إعجاباً. شعرت بالفضول، فابتعدت ببطء عن فرِد، ووصلت إلى جانب الولد الأشقر «العنكبوتي» الذي كان جالساً عند طرف الصف. وصل الكيس إليه، فتنشّق الرائحة، وهمّ بإعادته إلى الولد الذي أعطاه إيّاه، إلاّ أنّي أصدرت هسيساً خفيفاً ومددتُ يدي لأخذه. تردّد قليلاً لأنّه فوجئ بوجودي إلى جانبه، ثمّ عاد وأعطاني الكيس.

نظرت إلى داخله، فرأيت أنّ القطعة الحمراء كانت عبارة عن قميص؛ أبقيت عينيّ متنبّهتين لأيّ حركة عدائية ضدّي، وأقحمت أنفي في فوهة الكيس وتنشّقت الرائحة.

في تلك اللّحظة فهمت معنى التعابير التي ظهرت على الوجوه، وشعرت بأنّ تعبيراً مماثلاً قد ظهر على وجهي؛ أمرٌ مؤكّد، إنّ رائحة دماء صاحبة القميص عطرة للغاية! كان رايلي محقّاً عندما قال إنّها بمثابة الحلوى. ولكنّي لم أكن في تلك

اللّحظة ظمأى للدماء، لذلك اقتصرت ردّة فعلي على الرضا والاعجاب، ولم تعتصر ملامحي عطشاً أو احتراقاً.

فكّرت كم سيستمرّ شعوري بالاكتفاء هذه المرّة. يتجدّد عادةً شعوري بالعطش بشكلٍ تدريجي بعد مرور بضع ساعات على تناولي الغذاء. هل سيكون الأمر مختلفاً هذه المرّة نظراً لضخامة الكمية التي ابتلعتها؟ توقّعت أن أجد الجواب على تساؤلي في الساعات المقبلة.

نظرت إلى من حولي لأتأكّد أنّ لا أحد منهم كان ينتظر انتقال الكيس إليه، وفكّرت في احتمال أن يكون لدى فردْ أيضاً الفضول للتعرّف إلى تلك الرائحة. التقت عينا رايلي بعينيّ، فابتسم قليلاً، وأشار بهزّة طفيفة من ذقنه في اتجاه فرِد. إشارته تلك، كادت تدفعني إلى فعلٍ عكسي ، والعودة عمّا كنت أريد القيام به في الواقع. ولكنّي تراجعت عن المشاكسة، خوفاً من إثارة شكوكه حولي.

مشيت نحو فرِد متجاهلةً الشعور بالتقزّز الذي ما لبث أن اختفى عندما أصبحت بقربه. أعطيته الكيس فابتسم معبّراً عن امتنانه وشمّ رائحة القميص. هزّ فرِد رأسه وأعاد إليّ الكيس مرفقاً بنظرةٍ محمّلة بالمعاني؛ فتوقّعت عندئذٍ أنّه سيفصح لي عن ذلك الأمر الذي يشغل باله في أوّل فرصةٍ نكون معاً على انفراد.

رميت الكيس نحو الصبي الأشقر «العنكبوتي»، فارتبك وكأنّ ذلك الشيء قد سقط عليه فجأةً من السماء، ولكنّه نجح أخيراً في التقاطه.

لم تسكت الغمغمات والوشوشات حول الرائحة، حتّى اضطرّ رايلي إلى التصفيق مرّتين لاستعادة الانتباه.

«حسناً، هذا هي الحلوى التي أخبرتكم عنها. ستجدون الفتاة مع أصحاب العيون الصفر؛ وبكلّ بساطة أقول إنّ الحلوى ستكون من نصيب الذي سيجدها أوّلاً».

علت زمجرات مؤيّدة وحماسيّة.

لم يقنعني كلام رايلي. أليس هدفنا الأوّل القضاء على جماعة العيون الصفر؟ ألم يُردّد على مسامعنا سابقاً أنّ وحدتنا هي مفتاحنا إلى النصر. فأين السّباق على الوصول إلى الفتاة أوّلاً، من فكرة الوحدة؟ اتّباع هذه الخطّة سيضمن لنا موت شخص واحد وهو إنسان. تحضرني أفكار عدة أفضل لتحفيز هذا الجيش، مثلاً: من يقتل أكبر عدد من أصحاب العيون الصفر، ينال الفتاة؛ من يبرهن أكثر عن روح التعاون ينال الفتاة؛ من يتّبع الخطّة، أو من يطيع الأوامر أكثر ينال الفتاة. يجب أن يركّز المقاتلون على مصدر الخطر الذي ليس الفتاة بالطبع.

نظرت إلى الآخرين من حولي واستنتجت أنّ لا أحد بينهم يفكّر بالطريقة التي كنت أفكّر بها. كان راوول وكريستي يتبادلان نظرات التحدّي. وكانت جين تتناقش مع سارة عن إمكانية تقاسم المكافأة بينهما.

أمّا فرِد، فكان يقطّب حاجبيه، لعلّه متنبّهٌ أيضاً إلى الخطأ الذي وقع به رايلي.

«أمّا الأمر الأخير»، قال رايلي وفي صوته تردّدٌ ظاهر، «فهو صعب التصديق أيضاً، ولكنّي لن أطلب منكم القيام بشيء لا أقوم به أنا شخصياً. تذكّروا أيها الرفاق أنّي سأكون معكم في كلّ خطوة».

تجمّد مصّاصو الدماء عن الحركة مرّة أخرى، ولاحظت أنّ راوول كان يحتفظ بالكيس، ويشدّ عليه قبضته، كإعلان بأن المكافأة ستكون من نصيبه وحده.

وتابع رايلي: «من الأمور الكثيرة التي لا زلتم تجهلونها حول حياة مصّاصي الدماء، هناك ما يتقبّله المنطق بسهولة وهناك ما هو عكس ذلك. سأخبركم عن أمرٍ قد لا يبدو صحيحاً لأوّل وهلة، ولكنّي اختبرته بنفسي». وفكّر خلال ثوانٍ يخالها السامع طويلة، ثمّ قال: «أشعّة الشمس لا تنزل إلى الأرض دائماً بالطريقة ذاتها. فهناك أربعة أيام في السنة، تصيب فيها أشعة الشمس الأرض وفق زاوية معيّنة؛ وخلال هذه الأيام الأربعة، لا يتعرّض نوعنا لخطر الاحتراق إذا خرجنا في ضوء النهار».

في تلك اللّحظة، احتبست الأنفاس، وبدا وكأن الحضور قد تحوّل إلى مجموعة من التماثيل الصمّاء.

«اليوم هو واحد من تلك الأيّام الاستثنائية، فأشعّة الشمس التي تلمع في الخارج الآن لا تؤذينا. لذلك، سنخرج اليوم في ضوء النهار إلى المعركة ونفاجئ أعداءنا».

ودارت الأفكار في رأسي دورتها، وراحت تتضارب في حركتها. إذاً، كان رايلي يعلم بأنّ أشعة الشمس لا تؤذينا؛ أو أنّه

يؤمن حقّاً بما شرحه الآن، وتكون القصّة من حبكها «هي». أو أنّ... ما قاله رايلي صحيحاً، وأنا ودياغو حالفنا الحظّ لأنّنا خرجنا إلى الشمس في يوم استثنائي لا يؤذينا. ولكنّ دياغو أخبرني أنّه وقف في الظلّ ذات مرّة أيضاً ولم يصب بأيّ أذىً. كما أنّ رايلي يقول إن هذا الوضع الاستثنائي لأشعة الشمس لا يحدث سوى في أربعة أيّام نادرة من أيّام السنة، ولكنّي كنت مع دياغو في ضوء النهار منذ أربعة أيّامٍ فقط.

أعلم أنّه لم يكن في استطاعة خالقتنا ورايلي ضبط المجموعة سوى عن طريق إخافتهم من نور الشمس. ولكن لماذا يريدان قول الحقيقة بهذا الأسلوب المجتزأ الآن؟

يمكنني المراهنة على أنّ هذا القرار له علاقة بأصحاب الجلابيب السود. إنّها تريد الانتهاء من معركتها ضدّ ذوي العيون الصفر قبل انتهاء المهلة. فأصحاب الجلابيب رفضوا طمأنتها كليّاً على مصيرها بعد انتهاء المعركة. فقلت في نفسي، لعلّها تخطّط للفرار في رحلةٍ طويلة إلى أوستراليا، أو إلى أيّ مكان في الجهة الأخرى من العالم، حالاً بعد إتمام المهمّة وبعد القضاء على العدوّ المشترك. بالطبع لن ترسل إلينا بطاقات دعوة مذهّبة لمرافقتها. من الأفضل أن أجد دياغو لأقنعه بالفرار معي حالاً، والذهاب في اتجاهٍ معاكس لطريق رايلي وخالقتنا. ولكن، لا بدّ من أن أوجّه انتباه فرِدٍ إلى هذا الموضوع عندما نكون بمفردنا.

علمت أنّ خطبة رايلي كانت تعتمد على معطيات تضليلية

خطيرة، ولم أكن متأكّدة من أنّي قد اكتشفت جميع جوانبها، فتمنّيت لو كان دياغو معي ليساعدني في التحليل.

فهمت الدافع وراء اختراع رايلي لحكاية «كون أشعّة الشمس غير محرقة خلال أربعة أيّام في السنة». لم يكن باستطاعته قول الحقّ بصراحة، لأنّه لو فعل، لكان اعترافاً بأنّه كان يخدعهم طيلة حياتهم، ولخسر ثقتهم في هذا الوقت الحرج.

وعاد رايلي ليكلّم «أصنامه»، قائلاً: «أتفهّم ملامح الذعر البادية على وجوهكم؛ إذ لو لم تتقيّدوا بتعليماتي في السابق لما كنتم أحياء الآن. كنتم تعودون إلى البيت في الوقت الصحيح وتبتعدون عن الحماقة. الخوف من الشمس جعلكم واعين وحريصين. لا أتوقّع منكم التخلّي عن وعيكم وعن حرصكم بسهولة. لا أتوقّع منكم أن تخرجوا من الباب الآن إذا طلبت منكم الخروج. ولكن...». وتابع بعد أن جال بنظره فوق الوجوه بسرعة، «أتوقّع منكم أن تتبعوني إلى الخارج».

ثمّ تحوّل بعينيه عن وجوه الحاضرين خلال أقلّ من ثانية، ونظر إلى شيءٍ ما وراء رأسي.

ثمّ أعاد تركيزه علينا: «راقبوني، واصغوا إليّ. ثقوا بي. عندما ترون أنّي بخير، صدّقوا ما تراه أعينكم. وستكتشفون أنّ لأشعّة الشمس انعكاسات ملفتة على بشرتنا. سوف تشاهدون ذلك. ولكن اعلموا أنّها لا تؤذيكم. على كلّ حال، أنتم تعرفون أنّني أرفض أن تتعرّضوا للخطر من دون سبب ضروري».

وبدأ في تسلّق الدرج.

«هل باستطاعتنا التمهّل قليلاً؟»، قالت كريستي.

قاطعها رايلي: «لا أطلب منكم سوى الانتباه لما سيحدث». وتابع الصعود بخطوات ثابتة. «العدوّ يعلم سرّ الأيّام الأربعة، ولكنّه يجهل أنّنا نعلم ذلك. وهذه فرصة لمصلحتنا».

وفيما كان يتكلّم، فتح الباب عند أعلى الدرج، وخرج إلى المطبخ. وبرغم أنّ العتمة كانت تسود المطبخ إلى حدٍّ كبير، هرب الجميع بعيداً عن الدرج، إلاّ أنا. وتابع الكلام بينما كان يمشي نحو الباب الخارجي. «معظم مصّاصي الدماء الشباب لا يتقبّلون هذا الواقع الاستثنائي بسهولة؛ وهم على حقّ في ذلك. لأنّ الذين لا يتّقون أشعّه الشمس عادةً، لا يعيشون طويلاً».

شعرتُ بعينيّ فرِد ترمقني. نظرت إليه، فوجدته متململاً، وكأنّه يريد الفرار إلى مكانٍ ما ولكن لا يعلم إلى أين.

قلت بهدوء: «لا تخف، الشمس لن تؤذينا».

وحرّك شفتيه بصمت: «هل تثقين به؟».

«قطعاً لا».

رفع فرِد حاجبه، واسترخى قليلاً.

نظرت إلى ورائنا، لأرى إلى أيّ شيء كان ينظر رايلي قبل قليل؟ لا وجود على الحائط لأيّ شيء جديد. فهناك إلى جانب بعض الصور العائلية لأناسٍ قد ماتوا، مرآة صغيرة، وساعة حائط قديمة. فاستنتجت فوراً أنّه كان ينظر إلى الساعة. ربّما كان عليه الالتزام بوقتٍ معيّن حدّدته خالقتنا للانطلاق.

«حسناً أيّها الأصحاب، أنا في الخارج الآن»، قال رايلي.

«يجب ألا تخافوا من نور الشمس في هذا اليوم، صدّقوني».

تضاعفت الأنوار في الخارج بعد أن لامست أشعة الشمس جسد رايلي. وبالطبع، كنت الوحيدة المدركة لهذا الأمر، ودخل النور من فتحة الباب إلى القبو، وتراقصت الألوان الزاهية على الحائط.

ارتفعت الهسهسات والدمدمات، وتكوّمت المجموعة في الزاوية المقابلة لمكان وقوف فرِد. وقفت كريستي وراء الجميع، وكأنّها كانت تريد استخدام فريقها كدرعٍ واقية تحفظ بها سلامتها.

اقترب رايلي من الباب، ودعانا لنصعد: «لا تخافوا، أنا بخير. لم أحترق، ولا أشعر بأيّ ألم. تعالوا لتشاهدوني بأعينكم!».

لم يتقدّم أحدٌ نحو مصدر النور.

كان فرِد جاثماً في محاذاة الحائط بقربي، يرمق الضوء مذعوراً.

أومأت بيدي قليلاً لأحوّل انتباهه نحوي. نظر إليّ برهةً متفحّصاً هدوئي. وببطء استقام في جلوسه إلى جانبي، فابتسمت له مشجّعةً.

الجميع كان يترقّب بحذرٍ شديد لحظة بدء الاحتراق. تذكّرت موقفي المماثل أمام دياغو في الكهف. هل بدوت غبيّة إلى هذه الدرجة في ذلك النهار؟

وتابع رايلي من أعلى الدرج: «أشعر بالفضول لمعرفة من

الأشجع بينكم. أتوقّع من الذي سيخرج أوّلاً من هذا الباب، ولكن قد لا أكون مصيباً في توقّعي، فقد سبق لي أن أخطأت».

أدرت عينيّ بسأم. الحيلة التي يلجأ إليها واضحة، وقد لا تنطلي على أحد.

ولكنّها نجحت على الفور تقريباً. أخذ راوول يتقدّم من الدرج؛ لم تجرؤ كريستي هذه المرّة على مسابقته لنيل رضا رايلي. وأشار راوول بحركة من يده إلى كيفن. فقام هذا الأخير برفقة الصبي الأشقر وتبعوا راوول مكرهين.

سمع صوت رايلي آتياً من فوق: «إنّكم تسمعون صوتي، وتعلمون أنّي لم أمت. أنتم مصّاصو دماء، لا تتصرّفوا كالأطفال».

ولكن، وبرغم التشجيع، لم يتخطَّ راوول ومرافقاه أسفل الدرج. ولم يتحرّك أيّ من الآخرين من مكانه. وبعد دقيقتين، عاد رايلي نحو الباب، وكانت الانعكاسات الضوئية في الظلّ أقل كثافةً، وأعلن: « تعالوا وانظروا إليّ، أنا بخير. تعال يا راوول!».

أخيراً، انحدر رايلي إلى أسفل الدرج، وأمسك بكتف كيفن وسحبه صعوداً. وإذا براوول يساعد في دفع صاحبه إلى أعلى ويبقى هو في الأسفل.

كنت أراقب من مكاني رايلي وكيفن بعد خروجهما، وشاهدت تضاعف الضوء بعد وقوع أشعّة الشمس على جسديهما.

«قل لهم يا كيفن إنّك بخير».

«أنا بخير يا راوول! وإنّي ألمع. هذا مدهش!». وراح يضحك.

«عظيم! أحسنت يا كيفن». قال رايلي بصوتٍ مرتفع.

نجحت الخطّة في جعل راوول يتحرّك صعوداً ولكن ببطء. وما هي إلا لحظات، حتى كان راوول يرقص ويضحك في ضوء النهار أيضاً.

لم يتحرّك الباقون بحماسة كما توقّعت، بل بصعوبة كبيرة. وكاد رايلي أن يفقد صبره، ويتحوّل في جهوده لحملهم على الخروج، من التشجيع إلى التهديد.

ونظر إليّ فرِد ليسألني بعينيه: «هل كنتِ على معرفة بهذا؟».

أجبت بحركة صامتة من شفتيّ: «نعم».

هزّ رأسه وراح يصعد الدرج. كان لا يزال في القبو نحو عشرة أشخاص، ومعظمهم من فريق كريستي. تبعت فرِد، وقلت في نفسي إنّ من الأفضل أن أخرج الآن، وليستنتج رايلي من ذلك ما يحلو له.

كان جميع من خرجوا يرقصون في نور النهار وكأنّهم كرات مضيئة. وكانوا ينظرون إلى أيديهم، وإلى وجوه بعضهم باغتباط عظيم. خرج فرِد إلى النور من دون تردّد؛ أمّا كريستي فكانت مثالاً حسناً لثبات الخوف الذي زرعه رايلي في داخلنا. فقد

تمسّكت بتعليماته السابقة وصمدت برغم البراهين الحسّية التي كانت أمامها.

وقفتُ مع فرِد على مسافة معتدلة من الآخرين. كان يتفحّص نفسه بدقّة، وينظر إليّ، ثمّ إلى الآخرين بطريقة علمية ودقيقة لم أكن أتوقّعها منه نظراً لهدوئه المعتاد. لا شكّ أنّه كان يقيّم بدقّة كلام رايلي وتحرّكاته. تُرى، ما هي الاستنتاجات التي توصّل إليها حتى الآن؟

اضطر رايلي إلى شدّ كريستي على الدرج بالقوّة، فتبعها فريقها وعندما وصلوا إلى الخارج، راحوا يضحكون ويهلّلون فرحاً. قام رايلي بتمرين قتالي سريع كان الهدف منه إعادتهم إلى الجديّة والتركيز. شعر الجميع بأنّ ساعة الصفر اقتربت، فعمّ الهدوء نسبيّاً وعادت ملامح العدائية إلى الوجوه. واضحٌ أنّ فكرة الذهاب إلى القتال، والقيام بأعمال البتر والحرق بتشجيع من الرؤساء، كانت محبّبة جدّاً إلى بعضهم، مثل راوول وساره وجين.

منذ بدء التدريب، حاول رايلي أن يزرع في أذهانهم استراتيجيّة معيّنة للهجوم - عندما نحدّد موقع العدوّ، ننقسم إلى قسمين. الفريق الذي يقوده راوول يهاجم مقدّمة جيش العدوّ؛ وفريق كريستي يهاجم خاصرته. شعرت أنّ تقاسم الأدوار بهذه الطريقة كان مناسباً لشخصيّة كلّ من القائدين. ولكنّي كنت أشكّ بقدرتهم على الانضباط ضمن هذه الخطّة أو غيرها عند احتدام المعركة.

استمرّ التدريب على هذه الخطّة نحو ساعة من الوقت، ثمّ نادى رايلي الجنود إلى التجمّع. في هذه اللّحظة، راح فرِد يمشي إلى الوراء مبتعداً بخطى بطيئة نحو الشمال؛ وكان رايلي قد طلب من الجميع الوقوف والاستعداد للسير نحو الجنوب. كنت أحاول البقاء بقرب فرِد برغم عدم معرفتي بمخطّطه.

توقّف فرِد عن الرجوع بعد أن وصلنا إلى ظلّ بعض الأشجار الكبيرة عند حافّة الغابة، وكنّا قد ابتعدنا نحو مئة مترٍ عن المجموعة. كان فرِد يراقب رايلي ليرى مدى تنبّه هذا الأخير إلى تراجعنا. ولكن لم يلحظ أحدٌ ذلك.

وباشر رايلي الكلام قائلاً: «سننطلق الآن. أنتم أقوياء ومستعدّون؛ وتحترقون عطشاً لتذوّق الحلوى، ألستم كذلك؟ الآن، حان وقت الحلوى».

كان على حقّ في ذلك. فبرغم كميّة الدماء الضخمة التي ابتلعتها، أشعر وكأنّ العطش للدماء يعود إليّ بسرعة وإلحاح أكثر هذه المرّة. تُرى، هل الزيادة في كميّة الغذاء تعطي ردّة فعلٍ عكسية؟

وتابع رايلي: «أصحاب العيون الصفر قادمون نحوكم من الجهة الجنوبية. وهم لا يهملون صيداً في طريقهم لاكتساب القوّة. إنّها تراقبهم، لذلك سأعلم مكانهم. وسوف تلاقينا بنفسها إلى هناك برفقة دياغو». ونظر بسرعة إلى حيث كنت أقف؛ وقطّب حاجبيه قليلاً، ثمّ عاد إلى طبيعته، واستمرّ في كلامه: «سننقضّ عليهم وكأنّنا (تسونامي) وسنتغلّب عليهم

بسهولة، وبعد ذلك سنحتفل». وابتسم. «أحدكم سيحتفل أوّلاً». ونظر إلى راوول وأمره: «أعطني الكيس يا راوول!». ومدّ يده، فرمى راوول الكيس مرغماً. لاحظت أنّ راوول كان يحاول إعلان حقّه بالحصول على الفتاة من خلال استحواذه على رائحتها.

«تنشّقوا الرائحة مرّة إضافية!».

وتساءلت في نفسي: «هل المطلوب هو التركيز على القتال، أو على الفتاة؟».

راح رايلي ينقل القميص الحمراء بيده من مصّاص دماء إلى آخر وكأنّه يريد التأكّد من إضرام نيران العطش في نفوس الجميع. وكنت ألاحظ من ردود الفعل أنّ العطش قد عاد إلى الجميع مثلما عاد إليّ. لم يكن ضرورياً أن نشمّ رائحة الفتاة مجدّداً، فنحن لا ننسى شيئاً. إنّ مجرّد التفكير في رائحة تلك الفتاة أفاض السمّ في فمي.

«هل أنتم معي؟». صرخ رايلي.

«نعم!». صاح الجميع.

«إذاً، فلنقضي عليهم!».

ومن جديد تحرّكت مجموعة «الحيتان» ولكن في البرّ هذه المرّة.

لم يتحرّك فرِد، وبقيت معه على الرّغم من حاجتي إلى الوقت. كنت أريد الوصول إلى الخطوط الأمامية قبلهم، لكي أجد دياغو وأقنعه بضرورة الانفصال عنهم قبل بدء المعركة.

نظرت إليهم وهم يبتعدون، وقلت في نفسي إنّي أصغر سنّاً من معظمهم، ما يعني أنّه ما زال بإمكاني الوصول بسرعةٍ أكبر.

«لن يتمكّن رايلي من التفكير بي قبل مرور عشرين دقيقة من الآن». قال لي فرِد بصوتٍ عادي ومألوف، وكأنّنا تعوّدنا تبادل الحديث منذ زمنٍ طويل. «لقد راقبت الوقت بدقّة... سيشعر بدوار إذا حاول أن يفكّر بي حتّى من مسافة بعيدة».

سألت: «هل هذا صحيح؟».

ابتسم فرِد، وأجاب: «راقبت فعالية تأثيري، وطوّرت قدراتي. أستطيع الآن أن أمنع الآخرين من رؤيتي كليّاً. لا يمكن لأحد النظر إليّ حين لا أرغب بذلك».

قلت: «كنت ألاحظ ذلك». وبعد ثوانٍ، سألته: «ألا تنوي الذهاب وراءهم؟».

«كلاّ، وبكل تأكيد. واضحٌ أنّ رايلي يخفي عنّا أموراً عديدة. لن أذهب معه، ولن أسمح له بأن يحرّكني كيفما يشاء».

ها إنّ فرِد قد فهم اللعبة وحده.

وتابع فرِد: «كنت أنوي الانفصال عنهم قبل الآن، ولكنّي أردتّ التكلّم إليك قبل ذلك، ولم تسنح لي الفرصة».

قلت: «وأنا أيضاً، كنت أريد التكلّم إليك... يجب أن تعلم أنّ رايلي كان يكذب علينا بشأن الشمس. وعندما أجبر على قول الحقّ، اخترع قصّة (الأربعة أيّام)، وهي خدعة كبيرة. أظنّ أن شيلي وستيف اكتشفا الحقيقة، ثمّ هربا؛ وكذلك فعل الآخرون الذين اختفوا فجأةً. وهناك دوافع سياسية كثيرة لما

يجري، ولا يقتصر الأمر على عدوّ واحد فقط». أكملت جملتي بسرعة، لأنّي كنت أشعر بأنّ الوقت كان يمرّ بسرعة، وعليّ الانطلاق لملاقاة دياغو.

وأجاب فرِد بهدوء: «لا عجب في ذلك! لهذا أفكّر في الانطلاق لاكتشاف العالم بمفردي. في الحقيقة، كنت أفكّر في الذهاب وحدي، ولكنّي قرّرت في ما بعد أن أسألك إن كنت تودّين الذهاب معي. ستنعمين بالأمان معي. لن يتجرّأ أحدٌ على اللّحاق بنا».

فكّرت في عرضه قليلاً. لا شكّ أنّ الأمان بالنسبة لي كان مهمّاً جدّاً في تلك اللّحظة.

ولكنّي قلت: «يجب أن أذهب لملاقاة دياغو الآن».

هزّ برأسه مفكّراً: «حسناً، إن كنت مصمّمة على عدم التخلّي عن دياغو، يمكنه الانضمام إلينا. فالكثرة تساعد في بعض الأحيان على السلامة».

«نعم!». قلت بتأييد شديد، إذ لم يذهب عن بالي قطّ الذعر الذي انتابني عندما كنت أراقب مع دياغو من أعلى الشجرة أصحاب الجلابيب السود الاربعة في تقدّمهم.

رفع فرِد أحد حاجبيه مستغرباً نبرة صوتي.

فشرحت له: «هناك أمرٌ آخر أريد منك عدم تصديق ادّعاءات رايلي بشأنه، وهو وجوب الحرص على إبقاء وجودنا خفيّاً بالنسبة إلى الآدميين. لقد اكتشفت بل رأيت بأمّ عيني جماعة غريبة الأطوار من مصّاصي الدماء مهمتهم القضاء على

كلّ مجموعة من نوعنا لا تتصيّد بحذر وتفضح بالتّالي وجودنا في هذا العالم. إنّهم مخيفون، لذلك أنصحك بتوخّي الحذر خلال النهار والصيد برويّة في اللّيل». ثمّ نظرت نحو الجنوب بخوف، وقلت لفرِد: «يجب عليّ الإسراع».

فأجاب محاولاً استيعاب أقوالي: «حسناً، أودّ أن تطلعيني على المزيد من معلوماتك. أدعوك إلى ملاقاتي في فانكوفر. أعرف فانكوفر جيّداً وسوف أترك لك رائحتي في الحديقة العامّة (رايلي بارك). ولكن لن أمكث هناك أكثر من أربع وعشرين ساعة».

«أوّلاً سأجد دياغو، ثمّ نلاقيك معاً إلى هناك».

«أتمنّى لك التوفيق يا بري!».

وأجبت بعد أن انطلقت راكضة: «شكراً يا فرِد! وأتمنى لك التوفيق أيضاً. إلى اللّقاء!».

وسمعته يقول: «أتمنّى ذلك».

واندفعت وراء رائحتهم بسرعة جنونية؛ لم تستغرق المسافة بيننا الوقت الذي توقّعته. لعلّ رايلي كان قد أوقفهم عند نقطة معيّنة ليؤنبّهم مثلاً... أو أنّه تذكّر فرِد، وتوقّف ليفتّش بين الجماعة عنّي وعنه. كانت الفرق في تقدّمها تلتزم شكلاً نظامياً لا بأس به كما فعلت في اللّيلة الماضية.

حاولت عدم لفت النظر لدى دخولي في صفوفهم والتحامي بهم. ولكن رايلي، في تلك اللّحظة بالذات، أدار رأسه إلى الخلف ليلقي نظرة على المتباطئين في المؤخرة، فوقع بصره

عليّ. عند ذلك، رأيته يركض بسرعةً أكبر. تُرى هل فعل ذلك لأنّه توقّع أن يكون فرِد إلى جانبي، وفضّل الابتعاد عن كلينا أكثر. كنت أعلم أنّ رايلي لن يرى فرِد مجدّداً في حياته...

بعد مرور خمس دقائق على ذلك، تغيّر كلّ شيء.

هدر راوول وزمجر... معلناً أنّه التقط الرائحة، ثمّ انفصل عن المجموعة وراح يعدو بوحشيّة. وما لبث أنّ وجد آخرون من مجموعته الرائحة أيضاً وانطلقوا كالمجانين. لقد لعب رايلي كثيراً على وتر هذه الفتاة من أجل ترغيب المجموعة، والنتيجة تُظهر أنّ هدف الحصول على الفتاة سيطر لدى المحاربين على جميع الأهداف الأخرى. في الحقيقة نحن صيّادون ولسنا جيشاً. لقد تلاشى العمل الجماعي في لحظة واحدة، لمصلحة السباق من أجل الدماء.

وبرغم أنّي لم أصدّق جميع أقوال راوول حول تلك الفتاة، لم أتمكّن من مقاومة رائحتها الشهيّة عندما وصلت إلى أنفي. كانت الرائحة طازجة وقويّة ما يشير إلى أن الفتاة مرّت من هنا منذ وقتٍ قصير وأنّ رائحتها كانت مميّزة حقّاً. كنت أشعر بقوّة عظيمة بفضل كميّة الدماء الكبيرة التي ابتلعتها البارحة؛ ولكنّي، وعلى الرّغم من كلّ ذلك، شعرت بالعطش.

حاولت أن أبطئ تقدّمي، وأن أتناسى رائحة الدماء. وفوجئت بأنّ رايلي كان الأقرب منّي. هل أبطأ تقدّمه عن قصد هو أيضاً؟

وكان يصرخ بالتعليمات ذاتها: «كريستي، إذهبي، تحرّكي

إلى الجهة المقابلة! كريستي، سارة، جين، انفصلن!». من الواضح أنّ خطّته في الهجوم أدّت إلى نتائج عكسية.

أسرع رايلي إلى داخل المجموعة وأمسك سارة من كتفها، ودفعها إلى جهة اليسار؛ وصرخ في وجهها: «إذهبي من الجهة الأخرى!». ثمّ التقط الصبيّ الأشقر، الذي لم أنجح أبداً في حفظ اسمه، ودفعه نحو سارة التي بدت غاضبة. أفاقت كريستي من سكرة الرائحة متأخّرة، وتنبّهت إلى أنّ عليها اتّباع استراتيجية معيّنة.

فصاحت بفريقها: «لنذهب من هذه الجهة، ونصل إلى الفتاة قبلهم!».

صرخ بها رايلي: «اتجاهي يؤدّي إلى مقابلة العدو من الأمام أيّ من جهة الرأس. إذهبوا إلى الجهة الجانبية».

تعثّرت خطواتي عندما سمعت ما قاله رايلي. كنت لا أريد الوصول إلى العدوّ من الجهة الأمامية، ولكنّ جماعة كريستي كانوا قد انقلبوا ضدّ بعضهم بعضاً، ولاحظت للتوّ أنّ سارة كانت تمسك بعنق الولد الأشقر، وما لبث صوت الكسر والتمزّق أن وصل إلى أذنيّ. كان ذلك كافياً لأن أتّخذ القرار حول الاتجاه الذي سأسلكه.

أسرعت لألحق برايلي ولكنّي التزمت بإبقاء بعض المسافة بيني وبينه. وعندما اقتربنا من فريق راوول، كانت الرائحة أقوى من أن أحافظ على تركيزي على الأمور المهمّة.

صرخ رايلي: «راوول!».

كان راوول منتشياً بالرائحة، فلم يجب على نداء رايلي بل اكتفى بشخرةٍ عالية.

وتابع رايلي: «يجب أن أذهب لمساعدة كريستي، وسألقاك هناك! حافظ على تركيزك!».

توقّفت فجأةً عن الحركة، وساورتني الشكوك.

لم يأبه راوول بما سمع، ولم يبدِ أيّ اهتمام بكلام رئيسه. أبطأ رايلي خطواته، وما لبث أن تحوّل إلى المشي بسرعة عاديّة. كان بوسعي الهروب ولكنّي خفت من أن يتنبّه إلى ما أحاول القيام به. أدار رأسه إلى الوراء فلاحظت ابتسامةً تتراقص على وجهه.

«بري، كنت أظنّك مع كريستي».

وعندما لم أجبه؛ سارع إلى الشرح.

«سمعت بأنّ أحدهم أصيب بالأذى، فقرّرت أن كريستي بحاجةٍ إليّ أكثر من راوول».

سألته: «هل تنوي... الانفصال عنّا؟».

تغيّرت ملامح رايلي فجأةً. كان من السهل عليّ قراءة أساليب الخداع التي يعتمدها وكأنّها مكتوبة على وجهه. فقد توسّعت عيناه للتوّ وبدا قلقاً.

«أشعر بالقلق يا بري. إنّي قلقٌ بشأنها. قالت إنّها ستلاقينا إلى هنا، لكي تساعدنا، ولكنّي لم ألتقِ برائحتها بعد. أخاف أن يكون قد أصابها مكروه. يجب أن أفتش عنها».

فقلت: «ولكن، من المستحيل أن تجدها قبل وصول راوول إلى أصحاب العيون الصفر».

أجاب بنبرة اليائس حقاً: «يجب أن أكتشف ماذا يحدث. أنا بحاجة إليها. لم يكن بالحسبان أن أقوم بقيادة المعركة وحدي!».

«ولكنّ الآخرين...؟».

«بري، يجب أن أذهب للتفتيش عنها الآن. عددكم كافٍ للتغلّب على أصحاب العيون الصفر. سأعود إليكم بأقرب فرصة».

تردّدت عن إبداء أيّ ردّة فعل. ونظرت نحو الطريق التي أتينا منها. وفكّرت بفرِد. تراه الآن على منتصف الطريق إلى فانكوفر... لم يسألني رايلي عنه البتّة؛ ربّما تأثير فرِد لم يزل فاعلاً حتى الآن.

«ستجدين دياغو هناك يا بري. سيكون عند خطّ الهجوم الأمامي. ألم تلتقطي رائحته بعد؟».

لم أعلم بما أجيب. «هل دياغو هناك؟».

«إنّه مع راوول الآن، أسرعي لتساعديه على البقاء حيّاً».

تبادلنا النظر خلال ثوانٍ طويلة، ثمّ حوّلت نظري جنوباً، إلى حيث ذهب راوول.

«أحسنتِ! سأذهب الآن لأجدها وأعود لأعاونكم على تنظيف ساحة المعركة. أعدكم بأنّ القضاء على العدوّ سيكون سهلاً، وربّما تنتهي المعركة قبل وصولك».

وانطلق في اتجاه يتقاطع عمودياً مع مسارنا الأصلي. يبدو أنّه كان يعرف طريقه جيّداً... يا له من كاذب! لن يتوقّف عن الكذب حتى النهاية.

ولكن لم يكن أمامي خيارٌ آخر سوى متابعة الطريق جنوباً. عليّ الوصول إلى مكان دياغو بأقصى سرعة. سوف أسحبه من هناك بالقوّة إذا لزم الأمر. أوّلاً، يجب أن نحاول الالتحاق بفرِد؛ أمّا لو لم نتمكّن من ذلك، فسنرحل وحدنا. نحن بحاجة إلى كسب الوقت. سأقول لدياغو كيف خدعنا رايلي وابتعد عنّا قبل بدء الاشتباك. غياب هذا الأخير عن المعركة التي دفعنا إليها، سيقنع دياغو بوجوب الرحيل.

وجدت الرائحة الآدمية أوّلاً، ثمّ رائحة راوول، ولكنّي لم أجد رائحة دياغو. هل الركض السريع منع التقاطي لرائحة دياغو، أم أنّ السبب هو سيطرة الرائحة الآدمية على غرائزي. كان نصف تفكيري مشلولاً بسبب هذه الخطّة الغريبة والمدمّرة. بالطبع، سوف نجد الفتاة؛ ولكن هل سنبقى مستعدّين للقتال في صفٍّ واحد بعدئذٍ، أو أنّنا سننقضّ على بعضنا عضّاً وتمزيقاً من أجل الحصول عليها؟

بعد قليل، سمعت زمجرات تمزّق الأجواء، وصراخاً آتياً من مسافة غير بعيدة، فعرفت أنّ المعركة قد بدأت، ولم يعد بوسعي لقاء دياغو قبل انخراطه في القتال. ولكنّي ضاعفت سرعتي في الركض علّني أصل قبل فوات الأوان كليّاً.

ثمّ وصلت إلى أنفي مع الريح رائحة حلوة وكثيفة، ورأيت

غيمة دخانٍ تنبعث من احتراق جثث مصّاصي دماء. لعلّ كلّ شيء قد انتهى. تُرى هل سأجد جماعتنا منتصرين، ودياغو منتظراً وصولي؟

ومررت عبر غيمةٍ من الدخان الكثيف، وإذا بي أجد نفسي خارج الغابة، أمام مساحة شاسعة وخالية من الأشجار. قفزت فوق إحدى الصخور، ولكنّي سرعان ما اكتشفت أنّها لم تكن صخرة بل جثّة مقطوعة الرأس.

ومشّطتُ بعينيّ المكان، فإذا به مزروعاً بالجثث والأعضاء المبتورة هنا وهناك؛ إضافةً إلى حريقٍ ضخم تتصاعد منه غيوم الدخان الليلكي الكثيف مقتحمة الفضاء المشمس. لم تكن المعركة قد انتهت، فالأجساد البرّاقة في الشمس كانت تتحرّك وتدور وتقفز بسرعة الومض، فيما كانت تُسمع أصوات تكسّر وتمزّق وهبوط الأشلاء أرضاً وفي كلّ اتجاه.

كنت أفتّش عن شيءٍ واحد: شعر دياغو الأسود والمجعّد. كلّ الرؤوس التي كانت تدور وتتضارب كان شعرها أشقر أو بنّياً؛ إلاّ أنّه كان هناك واحد ذو شعرٍ غامق اللّون كأنّه أسود، ولكنّه كان ضخم البنية؛ وفيما كنت أنظر إليه، رأيته ينزع رأس كيفن عن جسده ويرميه في النار ثمّ يقفز على ظهر مصّاص دماء آخر... هل هي جين!؟ كان هناك محارب آخر ذو شعرٍ أسود وناعم، ولكنّ قامته أصغر من قامة دياغو؛ كان يتحرّك بسرعة هائلة إلى درجة منعتني من التمييز إن كان رجلاً أو امرأة.

ثمّ رحت أحاول النظر إلى الوجوه وشعرت بأنّي مكشوفة

أمام أيّ هجوم. لم يكن هناك عدد كبير من مصّاصي الدماء في الساحة، حتى لو أخذنا في الاعتبار عدد الجثث التي على الأرض. لم أجد أيّ عنصر من مجموعة كريستي. لا شكّ أنّ عدداً كبيراً منهم كان قد احترق. أمّا معظم الذين ما زالوا أحياء فهم غرباء. أحد هؤلاء لمحني، ولاحظت للتوّ لون شعره الأشقر، وبريق عينيه الذهبي الذي كان يسطع في ضوء الشمس.

لا شكّ أنّنا أمام خسارة ذريعة!

بدأت بالتراجع نحو الأشجار، برغم أنّ خطواتي لم تكن بالسرعة الضرورية، فكنت لا أزال أفتّش عن دياغو. ولكنّ دياغو لم يكن هناك؛ حتى أني لم أجد أثراً يدلّني على أنّه مرّ من هناك قطعاً. كنتُ متنبّهة في ذلك الوقت إلى روائح معظم أتباع دياغو، وعدد من الغرباء. إضافةً إلى أنّي نظرت إلى الأشلاء المنثورة على الأرض، لم أجد بينها ما يمتّ إلى دياغو بصلة؛ وكان بوسعي التعرّف حتى على إصبعٍ من أصابعه لو كان موجوداً.

استدرت، وركضت بجدّيّة نحو الأشجار بعد أن اقتنعت أنّ مجيء دياغو إلى هنا لم يكن سوى خدعة إضافية حاكها رايلي.

وفجأةً، اتّضحت الأمور أمامي بسهولة، ما جعلني أفكّر أنّ هذه الحقيقة كانت مزروعة في داخلي منذ فترة من الوقت. عدم قدوم دياغو إلى هنا يعني بالتأكيد أنّه قتل. كان دياغو مقتولاً منذ الساعة التي دخل فيها رايلي إلى القبو، ولم يكن وراءه.

كنت قد وصلت إلى الأشجار عندما ضربتني قوّة عظيمة من الخلف وأردتني أرضاً. وإذا بذراعٍ قويّة تشدّ ذقني إلى الأعلى.

قلت متوسّلة: «أرجوك!». وكنت أقصد «أرجوك، اقتلني بسرعة ولا تعذبني».

خفّ ضغط الذراع قليلاً. لم أقاوم برغم أنّ جميع غرائزي القتالية كانت تدفعني للعضّ والتمزيق دفاعاً عن حياتي. ولكنّ الجزء الحكيم من دماغي كان يشير إليّ بأنّ الدفاع سيكون عقيماً. لقد كذب علينا رايلي أيضاً عندما أوهمنا أنّ هؤلاء هم مسنّون وضعفاء؛ وها أنّنا لم نتمكّن من الصمود أمامهم ولو لبضع ساعات، فكيف في التغلّب عليهم... حتى لو كان بإمكاني التغلّب بقوّة عضلي على مصّاص الدماء هذا، لن أتمكّن من ذلك لأنّي عاجزة عن الحركة؛ لقد مات دياغو، وماتت في داخلي نزعة حبّ البقاء.

ولكنّي فجأةً اندفعت كالطائر من تحت ذراعه، فاصطدمت بالأشجار وهبطت إلى الأرض. كان من الطبيعي أن أحاول الهرب، ولكن... دياغو قد مات فما نفع ذلك؟

كان مصّاص الدماء الأشقر يقف متربّصاً بي ومتحفّزاً للقفز ويبدو أقوى، وأكثر خبرةً من رايلي. لم يكن يرمقني بوحشيّة مثل راوول وكريستي، بل يجيد السيطرة على نفسه.

قلت مجدّداً: «أرجوك، لا أريد القتال».

لاحظت أنّ ملامحه اكتسبت بعض الليونة، برغم استمرار استعداده للقتال. كان ينظر إليّ بطريقة غير مفهومة كليّاً بالنسبة إليّ؛ وملامحه تشير إلى مخزون كبير من المعرفة، وكذلك إلى أمرٍ آخر، مثل التعاطف... أو الشفقة على الأقلّ.

أجابني بصوتٍ هادئ ولطيف: «أنا أيضاً، لا أريد القتال أيتها الطفلة؛ نحن ندافع عن أنفسنا فحسب».

كانت عيناه الغريبتان تعبّران عن صدق كلامه. فانتابني شعورٌ بالذنب لأنّي صدّقت يوماً ادعاءات رايلي. ربّما لم يكن لدى هذه الجماعة أيّ خطّة للهجوم علينا في سياتل. كيف يمكنني تصديق أيّ كلمة من كلّ ما سمعته؟

وقلت بخجل: «أعتذر لأنّنا لم نعلم بذلك. لقد كذب رايلي علينا».

كان مصغياً إليّ، ومصغياً أيضاً لما كان يدور في الساحة. فتنبّهت إلى سكوت الأصوات، ما يدلّ على أنّ القتال قد انتهى.

لم يكن لديّ شكّ حول نتيجة المعركة، خصوصاً بعد أن اقتربت مصّاصة دماء ذات شعرٍ بنيّ كثيف منّا، ووقفت إلى جانبه.

وقالت وهي تنظر إليّ: «كارلايل؟».

أجابها: «إنّها لا تريد القتال».

لمست المرأة ذراعه، وبدا أنّه كان لا يزال متحفّزاً للدفاع. فقالت: «إنّها خائفة جدّاً، هل...».

نظر إليها كارلايل ثمّ استقام في وقوفه بعض الشيء. ولكنّي لاحظت أنّ الحذر لم يفارقه بعد.

«نحن لا نرغب في إيذائك. ولم نكن نرغب في مقاتلة أيٍّ منكم». قالت لي بصوتٍ ناعم ومريح.

فقلت بصوتٍ خفيض: «إنّي أعتذر».

كان من الصعب عليّ التفكير بوضوح في خضمّ تشابك كلّ هذه الأمور الصعبة. ها أنّ دياغو قد مات. إنّها المصيبة الكبرى التي نزلت على رأسي. إضافةً إلى أنّ المعركة انتهت، وخسرت جماعتي، وربح أعدائي. ولكن عناصرعدّة من جماعتي كانوا يتمنّون احتراقي، بينما يعاملني الأعداء بلطف. إضافةً إلى أنّي أشعر بالأمان بقرب هذين الشخصين أكثر ممّا شعرت في حياتي بقرب راوول وكريستي. حتّى إنّي أشعر بالارتياح لموت هذين الأخيرين. . . كلّ ذلك كاد يفقدني صوابي.

«أيتها الطفلة!». قال كارلايل. «هل أنت مستعدّة للاستسلام لنا؟ إن لم تحاولي إيذاءنا لن نؤذيك».

صدّقته. وقلت هامسة: «نعم، أنا أستسلم. لا أريد إلحاق الأذى بأحد».

مدّ يده إليّ مشجّعاً، وقال: «تعالي أيتها الطفلة. انتظري قليلاً ريثما نقوم باجتماع عائلي سريع، بعد ذلك سنطرح عليك بعض الأسئلة. أجيبي بصدق عليها، وستكوني بأمان».

وقفت، وكنت حذرة من القيام بأيّ حركة قد تبدو عدائيّة.

وسمعت صوت رجلٍ ينادي: «كارلايل!».

وللتوّ، انضمّ إلينا مصّاص دماء آخر، ومع ظهوره فقدت الشعور بالأمان.

كان أشقر اللّون مثل الأوّل، لكنّه أشدّ نحافةً وأكثر طولاً منه. بشرته مكسوّة بالندوب وخصوصاً عند العنق والفكّ. كما أنّ على ذراعه عدداً كبيراً من الندوب أيضاً، منها ما كان يبدو

حديثاً، نتيجة اشتباكات اليوم، وآخر يحمل آثار الماضي. لا شكّ أنّه محاربٌ قديم، خاض معارك أكثر ممّا يمكن تصوّره، وكان رابحاً على الدّوام. . . رأيت عينيه تلتمعان شزراً، وشكله يكتم بصعوبة غضب أسدٍ مجروح.

من اللّحظة التي رآني فيها، تقوّس ظهره وتحفّز للوثوب.

فحذّره كارلايل بسرعة: «جاسبر!».

انتصب جاسبر حالاً، وسأل كارلايل: «ماذا يحدث؟».

«إنّها لا تريد القتال. لقد أعلنت استسلامها».

قطّب جاسبر حاجبيه، فشعرت للتوّ بموجة من الغضب الغامض يشتعل في داخلي.

ثمّ قال بعد تردّد: «أعتذر يا كارلايل، ولكنّنا لا نستطيع أن نسمح لأحد من مصّاصي الدماء الجدد بالانضمام إلينا. هذا يعرّضنا لخطر كبير عندما تزورنا عائلة فولتوري».

لم أفهم بالتحديد معنى قوله، ولكنّي فهمت ما يكفي؛ كان يريد قتلي.

هنا، تكلّمت المرأة: «إنّها طفلة يا جاسبر، ولا يمكننا أخذ القرار بقتلها من دون سببٍ اقترفته».

عجبت من تصرّفها فهي تتكلّم عن القتل من منظور أخلاقي بشري؛ كأمرٍ سيّئ يمكن تفاديه.

«سلامة عائلتنا على المحكّ يا إيزمي! من المهمّ ألا نخالف القوانين».

تقدّمت إيزمي خطوتين، ووقفت بيني وبين الذي يريد

قتلي. كانت تدير ظهرها لي، ومجدّداً عجبت من تصرّفها الواثق. وقالت: «لا يا جاسبر. لا أوافقك الرأي».

إلا أنّ كارلايل بدا قلقاً، وكان يرمقني بنظراتٍ حذرة عرفت من خلالها مدى اهتمامه بسلامة هذه المرأة. إذ كنت سأقلق بالطريقة ذاتها لو أدار دياغو ظهره إلى مصّاص دماء آخر. ولكنّي حرصت على أن تبقى المظاهر السلمية واضحة على وجهي.

«أظنّ أنّ علينا المخاطرة. نحن نتّبع قوانين عائلة فولتوري»، قال كارلايل، «ولكنّنا لسنا هم. نحن نحترم الحياة، ولا نتعامل معها بخفّة. سوف نشرح لهم وجهة نظرنا».

«قد يظنّون أنّنا قمنا بخلق مصّاصي دماء جدد لأغراض دفاعيّة».

«ولكنّنا لم نفعل ذلك. وعلى أيّ حال، لم يحدث من جانبنا أيّ تجاوزات، كما يحدث في سياتل. ليس هناك قانون يمنع خلق الجدد الذين يلتزمون بالنظام».

«إنّها مخاطرة كبيرة!».

لمس كارلايل كتف جاسبر، وقال: «لا يا جاسبر. لا يمكننا أن نقتل هذه الفتاة».

هدر جاسبر في وجه كارلايل فشعرت بالغليان في صدري. بالطبع، لن يُقدم جاسبر على إيذاء كارلايل والمرأة التي يحبّ. ولكنّه ما لبث أن زفر نفساً طويلاً، فعرفت حينئذٍ أنّه قرّر اعتماد اللّيونة في موقفه، فتلاشى غضبي.

ثمّ تكلّم بصوتٍ أكثر هدوءاً: «لست مقتنعاً بهذا الأمر. . . ولكنّي أصرّ على مراقبتها بنفسي. أنتما لا تعرفان كيفيّة التعامل مع من تعوّدت على العيش بطريقة وحشية لزمنٍ طويل».

«بالطبع!»، قالت المرأة. «ولكن كن لطيفاً معها».

وقال جاسبر: «يجب أن ننضمّ الآن إلى الآخرين. تقول آليس إنّه لم يبقَ أمامنا كثيرٌ من الوقت».

هزّ كارلايل رأسه ومدّ يده إلى إيزمي، وسار الاثنان نحو الساحة المفتوحة.

«وأنتِ»، قال جاسبر بعد أن عاد التجهّم إلى وجهه. «تعالي معنا؛ ولا تقومي بأيّ حركة طيش. إن فعلتِ، فسأقضي عليك».

شعرت بموجة الغضب تقتحمني من جديد. وجزءٌ منّي كان يدفعني للتكشّير عن أنيابي، ولكنّي لم أفعل، لأنّه كان ينتظر عذراً من هذا النوع ليتخلّص منّي.

صمتّ عن الكلام، وبدا كأنّه يفكّر في أمرٍ معيّن. ثمّ أمرني: «أغلقي عينيك».

تردّدت، هل قرّر قتلي أخيراً؟

«أغلقي عينيك!».

صررت على أسناني، وأغلقت عينيّ. فتألّمت من عجزي أكثر فأكثر.

«إتبعي صوتي ولا تفتحي عينيك. إذا فعلتِ، ستخسرين حياتك. هل فهمتِ؟».

وافقت بهزّةٍ من رأسي متسائلةً ما هو الشيء الذي لا يريدني أن أراه. وفي الوقت عينه شعرت بالارتياح، لأنّه إن أراد أن يخفي عنّي سرّاً، فهذا يعني أنّه سيتركني حيّة. إذ ما فائدة إخفاء السرّ عنّي إن كنت ذاهبة إلى الموت؟

«من هنا».

تبعته ببطءٍ محاولة الالتزام بتعليماته التي كانت إلى حدٍّ كبير دقيقة، فقد كان، على الأقلّ، حريصاً على أن لا أرتطم بالأشجار. تغيّر وقع صوته عندما خرجنا من الغابة إلى العراء؛ وكان الهواء لا يزال مثقلاً برائحة احتراق جماعتي. شعرت بحرارة الشمس تصلني بشكلٍ مباشر، فأضاء نورها باطن جفنيّ.

مشى أمامي إلى مكان الحريق، حتى إذا اقتربنا كثيراً منه، طلب منّي التوقّف. كانت قرقعة النيران لا تزال مسموعة، وأحسست بالدخان الحارّ يلامس جلدي. شعرت بالخوف، ولكنّي أدركت أنّه لو أراد قتلي حقّاً، لاستطاع قتلي في أيّ لحظة.

«إجلسي هنا. ولا تفتحي عينيك!».

كانت حرارة الأرض مرتفعة بفعل حرارة الشمس والحريق المجاور. جلست ولم آتِ بأيّ حركة، وركّزت على مظهري السلمي. ولكنّ التوتّر أصابني عندما شعرت بنظراته تنصبّ عليّ. لم أكن حاقدة على أصحاب العيون الصفر بعد أن اقتنعت بأنّهم كانوا يدافعون عن أنفسهم. ولكنّ شعوراً عدائيّاً غريباً راح يساورني ولم أعرف أسبابه، فخلته قد أتاني من خارج ذاتي، من

بقايا المشاعر السلبية التي كانت محتدمة في تلك الساحة منذ وقتٍ غير طويل.

لم أتصرّف بغباء ولم أستجب لتلك المشاعر، بل غرقت في حزني لأنّ دياغو لم يفارق تفكيري؛ كيف مات دياغو؟

أمرٌ مستحيلٌ أن يكون دياغو قد أفصح عن أسرارنا إلى رايلي بملء إرادته. معرفة رايلي لهذه الأسرار دفعتني قسراً إلى تصديق ادّعائه بأنّ علاقته بدياغو لا تزال جيّدة، وأنّ هذا الأخير كان قد سبقنا إلى هنا. وعادت صورة رايلي إلى رأسي، والقناع الجليدي الذي نزل فجأةً على وجهه عندما راح يصف الطريقة التي سيعاقب بها كلّ من يخالف أوامره. وعادت إلى أذنيّ كلماته الرهيبة ووصفه المروّع: «عندما أمسك بكم أمامها، لتقطع أرجلكم وتمزّقها ببطء، وببطءٍ تحرق أصابعكم ثمّ آذانكم، وأعينكم، وألسنتكم، وكلّ عضو معلّق بأبدانكم الواحد تلوَ الآخر».

لم أدرك سوى في تلك اللّحظة أنّ ما سمعته من رايلي، وارتجف قلبي لسماعه، كان وصفاً دقيقاً للطريقة التي مات بها دياغو.

في تلك اللّيلة، كنت متأكّدة أنّ شيئاً قد تغيّر في شخصيّة رايلي. قتل دياغو كان ذلك الشيء الذي تغيّر وضاعف قساوته. القول الوحيد الذي صدّقته من كلام رايلي هو أنّه كان يحبّ دياغو ويحترمه، ويعتقد أنّه الأفضل بيننا. وعلى الرّغم من ذلك، فقد راقب بدمٍ بارد مشهد تعذيبه، ولا شكّ أنّه شارك فيه. لقد اشترك في عمليّة قتل دياغو معها.

تصوّرت مقدار العذاب الأليم الذي يمكنني تحمّله قبل أن أُجبر على خيانة دياغو. فتخيّلت أنّه قد تحمّل مثله وأكثر قبل خيانتي.

فشعرت بدوارٍ في رأسي، وكنت أتمنّى إخراج صراخ دياغو وهو يحتضر من مخيّلتي، ولكنّي لم أفلح.

وإذا بصراخٍ يعلو في الساحة.

رفّت أجفاني قليلاً، ولكنّ جاسبر نهرني على الفور. لم أرَ سوى دخان ليلكيّ اللّون.

كنت أسمع صراخاً، وعواءً وحشيّاً مرتفعاً لم ينقطع. لم أتمكّن من تصوّر شكل الوجه الذي يمكنه إصدار هذا الصوت؛ فأضاف الغموض إلى رعبي رعباً. لا شكّ أنّ صفر العيون كانوا مختلفين جدّاً عنّا. ولكن عليّ من الآن وصاعداً أن أقول «عنّي»، إذ لم يبقَ سواي من كلّ تلك المجموعة. لا بدّ أن رايلي وخالقتنا قد انتهى أمرهما مثل البقيّة.

سمعت بعض الأسماء «جاكوب، ليا، سام»، وكانت هناك أصوات عدة ومتنوّعة، ولكنّ العواء كان مستمرّاً. لا بدّ أنّ رايلي قد كذب أيضاً عندما تكلّم عن عدد الأعداء.

خفّ العواء تدريجيّاً، وبقي صوتٌ غير آدميّ يصرخ بألم. صررت على أسناني، ورأيت وجه دياغو أمام عينيّ، وسمعت صوت صراخه في أذنيّ.

وسمعت صوت كارلايل يتوسّل: «رجاءً، دعوني ألقي نظرة. يمكنني المساعدة».

وعلا عواءٌ حادّ وجارح. وفجأةً، سمعت كارلايل يقول بنبرةٍ حارّة: «شكراً». وتلا ذلك كثير من الحركة، وخطواتٍ ثقيلة تقترب نحوي.

أنصتّ إلى الصوت بتركيز، فسمعت ما لم أكن أتوقّع سماعه مطلقاً. كانت هناك خرخرة أنفاس سريعة لم أسمع ما يشبهها بين جميع مصّاصي الدماء الذين عرفتهم؛ ومع الأنفاس كنت أسمع نبضات متكرّرة وقويّة، تشبه إلى حدٍّ بعيد... نبضات القلب؛ إنّما لم تكن بالتأكيد نبضات قلب إنسان. شعرت بأنّي أعرفها؛ وتنشّقت نفساً فاحصاً لأتعرّف على الرائحة، ولكنّ اتجاه الريح كان معاكساً، فلم أشمّ سوى رائحة الدخان.

لم أتوقّع أن شيئاً كان يقترب منّي قبل أن أشعر بضغطٍ قويّ يقبض على رأسي من الجهتين.

جفلت، وفتحت عينيّ بشكلٍ تلقائي لشدّة الصدمة، ورأيت وجه جاسبر أمام وجهي مباشرةً. فصرخ بي: «توقّفي عن ذلك». وشدّ بي إلى الأرض ثانيةً بعد أن كنت قد قفزت على رجلي من الهلع. لم أتمكّن من سماع أيّ حسٍّ آخر، فقد أطبق على أذنيّ بكفّيه بشكلٍ فائق الإحكام.

وأمرني مجدّداً: «أغلقي عينيك».

حاولت التغلّب على التوتّر الذي أصابني، والمحافظة على عينيّ مغلقتين. كانت هناك أمور لا يريدون أن أراها. لا بأس، فقد كنت على استعدادٍ للقبول بذلك إن كان شرطاً لإبقائي على قيد الحياة.

رأيت صورة فرِد ترتسم لحظةً داخل جفنيّ. تُرى هل سيلتزم بوعده وينتظرني في فانكوفر لمدّة أربع وعشرين ساعة. كنت أتمنّى أن تسنح لي الفرصة لأخبره عن أصحاب العيون الصفر وعددهم الكبير. إنّه عالمٌ كبير ومجهول بالنسبة إلينا، ومن الممتع جدّاً تقصّي حقائقه؛ خصوصاً برفقة فرِد حيث سلامتنا مضمونة لأنّنا لا نُرى.

ولكن تخيّل المستقبل برفقة فرِد، ومن غير دياغو، جعلني أشعر بالغثيان قليلاً.

كنت لا أزال قادرة على سماع العواء وبعض الأصوات؛ ولكنّي عاجزة عن متابعة النبضات الغريبة لمعرفة طبيعتها.

وبصعوبة، سمعت كارلايل يقول: «عليكم...». وانخفض صوته بحيث لم أسمع ما قاله بعد ذلك، ثمّ سمعت نهاية كلامه: «... من الآن وصاعداً. كنّا نوّد المساعدة أكثر، ولكن لا نستطيع مغادرةِ هذا المكان الآن».

وسمعت أصواتاً هادرة إنّما ليست مخيفة. وانخفض العواء حتّى أصبح عنيناً خافتاً، ما لبث أن اختفى وكأنّه كان يبتعد عنّي تدريجيّاً.

ساد الهدوء لبضع دقائق؛ ثمّ سمعت بعض الأصوات، ومن بينها صوتا كارلايل وإيزمي. تمنّيت لو كان باستطاعتي أن أشمّ شيئاً آخر غير رائحة الدخان؛ فبغياب الرؤية، والسمع الواضح، شعرت بأمسّ الحاجة لمصدرٍ حسّي آخر.

علا صوتٌ أنثويٌّ متميّزٌ بنبرته ووضوحه وكان يقول: «بقي

خمس دقائق». ثمّ تابعت: «وبيلّا ستفتح عينيها بعد سبع وثلاثين ثانية. إنّي متأكّدة أنّها تسمعنا الآن».

حاولت فهم ما أسمع. هل أجبرت فتاة أخرى على إغلاق عينيها مثلي؟ أم أنّ صاحبة الصوت تظنّ أنّ اسمي بيلّا، خصوصاً أنّ أحداً هنا لا يعرف اسمي حتى الآن؟ ورحت أحاول من جديد الاستعانة بحاسّة الشمّ لعلّني أفهم شيئاً ممّا يجري.

وسمعت تمتمة عالية، ولكنّ الصوت الواضح كان قد سكت.

فجأةً عاد الصوت العالي والواضح ليعلن: «ثلاث دقائق».

أرخى جاسبر يديه عن رأسي.

«يمكنك الآن أن تفتحي عينيك». قال لي ذلك بعد أن ابتعد قليلاً عنّي. كان صوته يوحي بالرّهبة. فنظرت حولي لأحاول التعرّف إلى سبب التوتّر الذي يسيطر عليه.

لم أتمكّن من النظر إلى مسافة بعيدة، فحقل الرؤية حولي كان محجوباً بالدخان الداكن. وعلى مسافة قريبة منّي وقف جاسبر عابساً، يصرّ على أسنانه ويرمقني بنظرات تنمّ عن... الخوف؛ ليس منّي، بل بسببي. تذكّرت ما قاله بأنّي سأعرّضهم لخطر الفولتوري. لا أفهم معنى كلمة «فولتوري»، ولا أتصوّر كيف يمكن لهذا المحارب القديم المغطّى بالندوب والذي لا يُقهر، أن يخاف.

وراء جاسبر، وقف أربعة مصّاصي دماء على خطٍّ واحد

متعرّج؛ وكانوا يديرون ظهورهم لي. أحد هؤلاء كانت إيزمي، وإلى جانبها امرأة طويلة شقراء، وأخرى قصيرة القامة وذات شعرٍ أسود. كما كان هناك شابّ ضخم البنية، شعره غامق اللّون، وكان مظهره يلقي الرعب في القلوب. تذكّرت أنّه الذي قتل كيفن. وخلال ثانية، تخيّلت ذلك الوحش يقضم عنق راوول، فشعرت بفرحٍ غير مفهوم.

وراء مصّاص الدماء الضّخم كان هناك ثلاثة آخرون، لم أتمكّن من رؤيتهم بوضوح. أحدهم كان كارلايل وكان يركع على الأرض، وإلى جانبه كان مصّاص دماء شابّ ذا شعرٍ نحاسيّ غامق. وممدّداً على الأرض، كان هناك آخر، لم أشاهد من معالمه سوى سرواله الجينز الأزرق، وحذائه البنيّ الناعم، فتوقّعت أن يكون أنثى أو صبيّاً صغيراً.

إذاً يبلغ مجموع أصحاب العيون الصفر ثمانية؛ ولكن مع الأخذ في الاعتبار كلّ تلك الأصوات التي سمعتها، والعواء والعنين والحركة، لا شكّ أنّ عددهم يتخطّى ضعفي الرقم الذي أخبرنا عنه رايلي.

وجدت نفسي أتمنّى بحرارة أن يمسك أصحاب الجلابيب السود برايلي ويلقنوه درساً بالتعذيب لا يُنسى.

لاحظت أنّ مصّاص الدماء الذي كان ممدّداً على الأرض يقف مترنّحاً على قدميه وكأنّه إنسان مريض.

تغيّر اتجاه الرياح فجأةً فتحوّل الدخان الكثيف نحوي ونحو جاسبر، وخلال لحظة لم أعد أرى شيئاً، ولكنّي شعرت بتوتّرٍ

شديد لم أفهم أسبابه، وكأنّ التوتّر المنبعث من جهة جاسبر كان يتسرّب إليّ.

ثمّ نفخت الرّيح بعد ثوانٍ في الاتجاه الآخر، فبتّ قادرة على رؤية وشمّ كلّ ما كان حولي.

هسّ جاسبر بغضب وأمرني بالإقلاع عن الربوض والعودة إلى الجلوس على الأرض بطريقة عاديّة.

اكتشفت فجأةً أنّ التي حسبتها منذ قليل مصّاص دماء، هي الفتاة التي كنت أسعى إلى اصطيادها منذ وقتٍ غير بعيد. واستيقظ في جسدي العطش إلى دمها الطيّب الذي لم أشمّ مثل رائحته اللّذيذة في حياتي؛ وشعرت بما يشبه الاحتراق في حلقي وحنجرتي.

حاولت ردع نفسي والسيطرة على سلوكي، وتذكير ذاتي بأنّ جاسبر كان يترقّب منّي أي محاولة للقفز، لكي يقضي عليّ نهائيّاً. نصف كياني كان يشدّني إلى التزام الهدوء وعدم التسرّع ، ونصفه الآخر كان يدفعني إلى الوثوب لالتقاط طريدتي.

وما زاد معاناتي، هو أنّ هذه الفتاة التي تدعى بيلّا كانت تطيل النظر إليّ وتتفحصني بعينين مذهولتين؛ ما جعلني أنظر بدوري إليها وألاحظ تدفّق الدماء العطرة تحت بشرتها الرقيقة. حاولت مراراً تحويل نظري عنها، ولكنّ عينيّ كانتا تعودان لتحوما حولها.

وتكلّم صاحب الشعر النحاسي إليها بصوتٍ خفيض: «لقد أعلنت استسلامها. إنّها سابقة لم أسمع بمثلها من قبل. لا أحد

سوى كارلايل يفكّر بإتاحة خيار الاستسلام للعدوّ؛ ولكن جاسبر ليس موافقاً».

لا شكّ أنّ كارلايل شرح لصاحب الشعر النحاسي الأمر قبل أن أفتح عينيّ.

كان ذو الشعر النحاسي يلفّ ذراعيه حول الفتاة، وهي تضغط بيديها الاثنتين على صدره. كان فمه شديد القرب من حنجرتها ولكنّها لا تبدو خائفة البتّة، كما أنّه لا يبدو متحفّزاً للصيد. كنت قد حاولت سابقاً تقبّل هذه الفكرة وهي أنّ جماعة من مصّاصي الدماء يحتفظون معهم بفتاة أليفة، لكنّي لم أتصوّر قطّ شيئاً مثل هذا؛ ولو لم تكن هذه الفتاة إنسانة، لظننت أنّ علاقة عاطفية تربط بينهما.

وهمست الانسانة: «هل جاسبر بخير؟».

فأجاب مصّاص الدماء: «لا بأس، لكنّ السمّ يضايق».

«هل عضّه أحدهم؟»، سألت الفتاة، وكأنّها فوجئت بالخبر.

في هذه اللّحظة تدافعت الأسئلة في ذهني. من هي هذه الفتاة؟ لماذا يسمح لها مصّاصو الدماء بمرافقتهم؟ ولماذا لم يتمّ القضاء عليها بعد؟ كيف تبدو مرتاحة معهم إلى هذا الحدّ، وكأنّها لا تخاف منهم؟ تبدو وكأنّها جزءٌ من هذا العالم على الرغم من جهلها لحقائقه. من الطبيعي أن يعضّ أحد المحاربين جاسبر، فقد خاض هذا الأخير معركة ضدّ جماعة من مصّاصي الدماء الأقوياء وقضى عليهم. ألم تدرك هذه الفتاة من نحن؟

أوغ! تضاعف إحساس الاحتراق في حنجرتي. حاولت الابتعاد عن فكرة إطفائه بدمها، ولكنّ الريح كانت تحمل رائحتها وتنفخها في وجهي! لم يعد السلوك العقلاني ممكناً؛ بعد أن تصل رائحة الطريدة إلى أنفي، يصبح التراجع مستحيلاً.

«كان يريد القتال على جميع الجبهات، كي لا تقوم آليس بأيّ عمل». قال ذو الشعر النحاسي محدّثاً الفتاة، ثمّ هزّ رأسه وهو ينظر إلى مصّاصة الدماء الصغيرة ذات الشعر الأسود، وأردف: «ولكنّ آليس ليست بحاجة إلى المساعدة».

ولمعت عينا صاحبة الشعر الأسود ورمقت جاسبر بنظرة سريعة، وقالت بصوتها الرّنان: «إنّه يبالغ في حمايتي... مجنون!». ردّ عليها جاسبر بابتسامة متحفّظة؛ وكأنّه كان قد نسي وجودي في تلك اللّحظة.

وفي تلك اللّحظة، عندما تحوّل انتباهه عنّي، شعرت برغبة غريزيّة جامحة لاقتناص الفرصة والانقضاض على الفتاة. كانت قريبة جدّاً منّي...

وإذا بمصّاص الدماء ذي الشعر النحاسي يرشقني بنظرات زاجرة ومحذّرة، فأدركت أنّي سأموت حكماً إن قمت بأيّ تحرّك نحو الفتاة. ولكنّ عطشي يكاد يميتني؛ كان الاحتراق في حنجرتي مؤلماً جدّاً إلى درجة أنّي أطلقت صرخةً عالية من شدّة بؤسي.

هدر جاسبر وزمجر، فحاولت الامتناع عن الحركة، ولكن رائحة الدماء كانت تشدّني وكأنّها يدٌ قويّة كانت تصرّ على

اقتلاعي من مكاني. لم أجرّب مرّةً في حياتي التراجع في نصف الطريق عن صيدي. ورحت أنبش التراب بأظافري لكي أجد شيئاً أمسك به فيساعدني على الالتصاق بالأرض، ولكن من دون جدوى. وقف جاسبر أمامي رابضاً ومستعدّاً للقضاء عليّ فوراً، لكنّي وبرغم معرفتي بقرب أجلي، لم أتمكّن من تحويل ذهني عن الطريدة.

اقترب كارلايل حالاً من جاسبر وأمسك بذراعه؛ ثمّ توجّه إليّ بنظرةٍ هادئة وعطوفة، وقال: «هل عدت عن رأيك أيتها الشابّة؟ نحن لا نريد القضاء عليك، ولكنّنا سنفعل ذلك إن لم تحسني السيطرة على نفسك».

فقلت له بتوسّل: «كيف يمكنكم مقاومة هذا الإغراء؟». وتابعت، وأظافري ما زالت تنبش في التراب والحصى: «أريدها!».

«يجب أن تتحمّلي الألم، وتتعلّمي كيفيّة السيطرة على النفس. هذا الأمر ليس مستحيلاً، وهو الحلّ الوحيد المتاح أمامك الآن لإنقاذ حياتك».

إن كانت السيطرة على عطشي للدماء البشرية شرطاً لبقائي حيّة، فلا بدّ أنّي في عداد الخاسرين. السيطرة على نيران العطش تتخطّى قدراتي. على كلّ حال، لست متأكّدة حقّاً من رغبتي في الحياة. إنّي أخاف من ألم الموت، ولكن ماذا سأفعل إن بقيت حيّة بعد أن مات الجميع؟ وبعد أن مات دياغو، ومضى على موته بضعة أيّام؟

كاد اسمه ينفلت من بين شفتيّ، وشعرت وكأنّي همست به عالياً. فقرّرت تحويل ذهني عن كلّ ما هو مؤلم؛ حاولت عدم التفكير بدياغو ولا بالفتاة، ولكن من دون جدوى.

«لماذا لا نبتعد عنها؟». قالت الفتاة، فقطعت بصوتها تركيزي. وعادت عيناي لتحوما حولها. لقد كانت بشرتها ناعمة ورقيقة إلى درجة تسمح برؤية الدماء النابضة في عنقها.

«علينا البقاء هنا»، قال صاحب الشعر النحاسي، «إنّهم قادمون نحونا وأصبحوا عند الطرف الشمالي من الساحة الآن».

«إنّهم؟» من يعني بهذا القول؟ نظرت إلى الشمال، فلم أرى سوى الدخان. تُرى، هل يعني بكلامه رايلي وخالقتنا؟ شعرت برعشة رعبٍ تسري في جسدي، وتلتها نفحة أمل سريعة. لن تتمكّن هي ولا رايلي من الوقوف في وجه هذه الجماعة الغريبة من مصّاصي الدماء. سيكون سهلاً على جاسبر وحده القضاء عليهما، حتّى في غياب المجموعة التي كانت تصدر أصواتاً شبيهة بالعواء.

أم أنّه يعني الجماعة الغامضة التي تدعى فولتوري؟

وعادت الريح لتنفخ في وجهي تلك الرائحة المغرية، ولتشتّت أفكاري. فارديت الفتاة بنظراتٍ ظمأى.

ولكن، عوضاً عن الهلع الذي كنت أتوقّع رؤيته في عينيها، وبرغم أنيابي الظاهرة، وارتجافي بسبب الجهد الذي كنت أبذله لأمنع نفسي من القفز على عنقها، كانت تنظر إليّ بإعجاب، وكأنّها تودّ التحدّث إليّ، أو كأنّ لديها سؤالاً تريد طرحه عليّ.

في هذا الوقت، ابتعد كارلايل وجاسبر عن مكان الحريق وعنّي، ليقفا على خطٍّ واحد مع الآخرين ومع الإنسانة. كانت الأنظار مصوّبة إلى البعيد، وإلى ما وراء مكان الحريق ومكاني؛ فأدركت أنّ موقعي كان أقرب إلى مصدر الخطر الذي يترقّبونه. زحفت قليلاً نحو مكان الحريق على الرّغم من ألسنة النار التي كادت تلسعني. هل انشغالهم كافٍ ليسمح لي بالهرب؟ إلى أين أذهب؟ إلى فرِدْ؟ أو أبقى بمفردي لأفتّش عن رايلي وأجبره على دفع ثمن ما فعله بدياغو؟

أخذني التفكير ومرّت تلك اللّحظات ولم أزل في مكاني. ثمّ شعرت بوقع خطىً قادمة من الشمال، فعرفت أنّي بتّ محاصرة بين أصحاب العيون الصفر، وهؤلاء المجهولين القادمين من الشمال.

«همّ!»، همهم صوتٌ أجش من وراء الدخان.

كان هذا المقطع الصوتي المنفرد كافياً ليعرّفني إلى صاحبته. ولو لم أتجمّد في مكاني من شدّة الرّعب، لانطلقت فارّةً كالسهمّ المسنون.

إنّهم أصحاب الجلابيب السود.

هل يعني ذلك أنّ معركةً جديدة ستدور رحاها الآن؟ أعلم أنّ أصحاب الجلابيب كانوا يريدون أن تنجح التي «خلقتني» في القضاء على ذوي العيون الصفر؛ ولكنّها لم تنجح. هل سيدفعهم ذلك إلى قتلها، كما أتمنّى، أو إلى قتل كارلايل وإيزمي ورفاقهما؟

اخترق أصحاب الجلابيب غيوم الدخان، ووقفوا مقابل ذوي العيون الصفر. لم ينظر أيّ منهم في اتجاهي، فحرصت على عدم القيام بأيّ حركة.

كانوا أربعة، تماماً كما في المرّة الماضية. ولكنّه بدا واضحاً أنّ صفر العيون، وعلى الرّغم من كونهم سبعة، كانوا يتصرّفون بتيقّظ واحتراس شديدَيْن معهم كما فعلت خالقتي ورايلي من قبل. لم يكن واضحاً أمامي الأمر الذي كان يميّز هؤلاء الأربعة عن غيرهم، ولكنّي أدركته بحدسي. هؤلاء هم الذين يحاكمون وينزلون العقاب.

«أهلاً بك يا جاين»، قال الذي كان يحضن الإنسانة.

وبدا أنّه كان يعرفها، ولكنّ صوته لا يوحي أنّ ثمة صداقةً تربطهما، كما أنّه لا ينمّ عن ضعف ورغبة في الارضاء كصوت رايلي عندما تكلّم إليها، ولا يشير إلى نوبة من الغضب والذعر كالتي أصابت خالقتي في وجودهم. كان صوته بارداً ومهذّباً في آنٍ معاً، ولا يدلّ على أنّ وجود هؤلاء قد فاجأه. تُرى هل أصحاب الجلابيب السود هم نفسهم الفولتوري؟

جالت جاين بعينيها بين أصحاب العيون الصفر والإنسانة، ثمّ وجّهت نظرها نحوي، فلاحظت أنّها كانت تترأس مجموعة الأربعة، ولكنّها كانت الأصغر قامةً بينهم. عيناها شديدتا الاحمرار وتشبهان أوراق وردةٍ حمراء مخمليّة. ولكن، وبرغم أنّها تبدو أصغر منّي سنّاً، أدركت بالتأكيد أنّها أقدم منّي في حياة مصّاصي الدماء. أيّ محاولة لعدم لفت الانتباه لم تكن مجدية،

ولكنّي أحنيت رأسي وأخفيته بيديّ، علّها تتصرّف كما تصرّف كارلايل معي إن عرفت أنّي لا أريد القتال.

«لا أفهم ما أرى». قالت جاين بنبرةٍ مبطّنة بالامتعاض.

فشرح لها ذو الشعر النحاسي: «لقد أعلنت استسلامها».

فصرخت جاين: «أعلنت استسلامها؟».

نظرت من بين أصابعي، فرأيت أصحاب الجلابيب السود يتبادلون بعض النظرات السريعة. تذكّرت ما قاله ذو الشعر النحاسي عن أنّ موضوع الاستسلام هو سابقة لم يسمع بها من قبل؛ وتوقّعت أنّ هؤلاء لم يسمعوا بها أيضاً.

«لقد طرح عليها كارلايل هذا الخيار». قال ذو الشعر النحاسيّ الذي توقّعت أن يكون المتكلّم باسم الجماعة والتي أعتقد أنّ كارلايل قائدها.

وأعلنت جاين بصوتها الجافّ: «لا خيارات أمام مخالفي القانون».

كانت عظامي قد تحوّلت إلى قطع من جليد؛ لكنّ مشاعر الرّعب كانت قد ولّت بعد أن باتت نهايتي حتميّة.

عندئذٍ تكلّم كارلايل بصوتٍ رقيق: «القرار في يدك. لقد فكّرت أنّنا لا نحتاج إلى قتلها طالما أنّها لا تهاجمنا؛ إضافةً إلى أنّ أحداً لم يعلّمها القوانين من قبل».

على الرّغم من منطقه الحيادي، شعرت أنّه كان يحاول الدفاع عنّي.

ولكنّ جاين عادت لتؤكّد: «هذه الأسباب غير مقبولة».

وأجاب كارلايل: «ليكن ما تريدين».

كانت جاين ترمق كارلايل بنظرات تمتزج فيها الحيرة والغضب. ثمّ هزّت برأسها، وغابت مجدّداً كلّ تعابير وجهها.

وقالت: «لقد تمنّى علينا آرو أن نصل إلى هذه المنطقة لكي نراك يا كارلايل، وهو يرسل إليك تحياته».

وردّ كارلايل: «أنا أتمنّى عليكم أيضاً أن تحملوا تحياتي إليه».

ابتسمت جاين ثمّ أجابت: «بالطبع». وبعد ذلك، نظرت إليّ وما زال ظلّ الابتسام مرتسماً على أطراف شفتيها؛ وتابعت كلامها إلى كارلايل: «يبدو أنّكم قمتم بعملنا اليوم... أو بالقسم الأكبر منه. أودّ أن أطرح سؤالاً عمليّاً من منطلق الفضوليّة المهنيّة فحسب: كم كان عددهم؟ فقد عاثوا خراباً كبيراً جدّاً في سياتل».

إنّها تتكلّم من منطلق عملي ومهني، ما يشير إلى أنّها مسؤولة عن عمل معيّن والذي هو على الأرجح المحاكمة والقصاص. وإن كان هناك من يحاكم، إذاً هناك قوانين. لقد أشار كارلايل إلى ذلك عندما قال: «نحن نطيع قوانينهم، ولكن ليس هناك قانونٌ يمنع خلق مصّاصي دماء جدد يلتزمون بالنظام». لقد خافت خالقتي ورايلي من أصحاب الجلابيب السود، الفولتوري، ولكن لم يفاجئهما وجودهم. كانوا على علم بالقوانين، وعلى وعيٍ للمخالفات التي يرتكبونها. لماذا لم يخبرونا شيئاً عنها؟ لقد تكلّمت جاين عن آرو. إذاً هناك من

الفولتوري أكثر من هؤلاء الأربعة. الجميع يخافهم فلا شكّ أنّ أعدادهم كبيرة.

سمعت كارلايل يجيب على السؤال الذي طرحته جاين: «ثمانية عشر مع هذه الفتاة».

وتبادل أصحاب الجلابيب الأربعة بعض الهمسات.

استعادت جاين قول كارلايل بنبرة تعجّب: «ثمانية عشرة؟». لم تأتِ خالقتنا على ذكر عددنا أمامها. ولكن هل فوجئت حقّاً بالعدد أو اصطنعت المفاجأة؟

وقال كارلايل: «كلّهم جدد، ويفتقرون للخبرة».

نفتقر للخبرة وللمعرفة، وكلّ ذلك بفضل رايلي! ها قد اتّضحت أمامي صورتنا في أعين مصّاصي الدماء الأكبر سنّاً. وتذكّرت أنّ جاسبر كان قد أشار إليّ بقوله «الطفلة».

«كلّهم جدد؟». قالت جاين بحدّة، «إذاً من الذي خلقهم؟».

كانت تتكلّم وكأنّها لم تتعرّف **عليها** من قبل. إنّها كاذبة مثل رايلي وربّما تفوقه براعةً في ذلك.

عندئذٍ، أجاب ذو الشعر النحاسي: «كان اسمها فيكتوريا».

عجبت أنّه يعرف اسمها فيما أنا نفسي كنت أجهله. ثمّ تذكّرت ما قاله رايلي عن أنّ لديهم موهبة في قراءة الأفكار. تُرى هل يجمعون معلوماتهم الكثيرة بهذه الطريقة؟ أم أنّ ذلك القول كان واحداً من أكاذيب رايلي الكثيرة؟

«كان؟». سألت جاين.

وأومأ ذو الشعر النحاسي برأسه إلى الشرق، فنظرت إلى ذلك الاتجاه ورأيت عموداً من الدخان الليلكي يرتفع عالياً من سفح الجبل.

وردّدت في نفسي لفظة «كان»؛ وراودني إحساس بالفرح يشبه ذلك الذي شعرت به عندما تخيّلت مصّاص الدماء الضخم منقضّاً على راوول ليقطّعه أشلاءً؛ إنّما الفرح الآن فهو أكبر وأعظم.

وسألت جاين ببطء: «فيكتوريا هذه، هل هي خارج العدد الذي سبق ذكره؟».

«نعم»، أكّد ذو الشعر النحاسي، وتابع: «وكان معها شابّ، قريبٌ بالسنّ إلى هذه الفتاة، أو يكبرها بسنة واحدة».

ماذا يقول؟ لقد قضى رايلي أيضاً...؟ أحسست بفرحي الوحشي يتضاعف؛ ومعه شعرت بالاطمئنان... ولو متّ الآن، فسأكون مرتاحة لأنّ مهمّة الانتقام لدياغو من رايلي قد تمّت.

وحاربت الابتسامة التي كادت أن تشقّ طريقها إلى وجهي.

لفظت جاين «عشرون»، وأرجعت نفساً طويلاً. وقلت في نفسي إنّ هناك احتمالاً من اثنين، فإمّا أن يكون هذا العدد أكبر بكثير ممّا توقّعت؛ أو أنّها ممثّلة بارعة. وأضافت: «ومن الذي قضى على الخالقة؟».

أجاب ذو الشعر النحاسي ببرود: «أنا الذي قضيت عليها».

كم أنا مدينة بالفضل إلى مصّاص الدماء هذا! لا فرق عندي

إن كان يعتني بإنسانٍ أليف أو لا. وحتّى لو كان هو الذي سيقتلني في النهاية؛ فسأظلّ مدينةً له.

والتفتت جاين إليّ بعينين مزمومتين.

وهدرت: «أنتِ... ما اسمك؟».

لقد سبق لهذه المخادعة أن قالت إنّها لن تسمح ببقائي حيّة، فلما أجيب طلبها؟ لذلك نظرت إلى وجهها ولم أنبس بكلمة.

وقابلتني جاين بابتسامة مشرقة وبريئة، وفي اللّحظة عينها شعرت بالنار تلتهمني وكأنّي استعدتُ من جديد أسوأ ليلةٍ في حياتي. كانت النيران تسري في جميع عروقي، وتغطّي جلدي وتنخر عظامي. فأحسست بأني كنت أموت احتراقاً في لجّةٍ من نار وسط ذلك القبو حيث كنت في السابق. لم يبقَ في جسمي خليّةٌ واحدة غير ملتهبة بنيران العذاب الذي لا يوصف. كنت أصيح من الألم، ولكنّي أكاد لا أسمع صياحي من شدّة الألم الذي يمزّق أذنيّ.

«ما اسمك؟». سألتني جاين مجدّداً، وتلاشت النيران في اللّحظة ذاتها، وكأنّ كلّ ما مررت به كان وهماً.

أجبت بأقصى سرعة: «بري»، وكنت لا أزال أتلوّى برغم غياب النار.

ابتسمت جاين مرّة ثانية، وهبّت النيران في كلّ مكان من جسدي. كم سأحتاج من الألم لكي أموت؟ لما لا يقطع أحدهم رأسي ليريحني؟ لدى كارلايل من الشفقة القدر الكافي للقيام

بذلك. إنّهم يقرأون الأفكار فلما لا يضعون حدّاً لعذابي؟

«سوف تقول لك كل ما ترغبين معرفته من غير هذا الأسلوب». قال ذو الشعر النحاسي.

توقّف الألم من جديد، وكأنّ ذلك يحدث بكبسة زرّ من قبل جاين. ووجدت نفسي أتخبّط على الأرض وأبحث في التراب عن الهواء.

قالت بمرح: «أوه! أعلم ذلك». ونادت: «بري؟».

ارتعدت عندما سمعتها، ولكن الألم لم يتجدّد هذه المرّة.

«هل ما قاله صحيحاً؟ عشرون؟ أهذا هو عددكم؟».

وطارت الكلمات من فمي: «تسعة عشر أو عشرون، ربّما أكثر، لا أدري! لقد وقع صدام بين سارة وذلك الذي لا أعرف اسمه على الطريق...».

توقّعت عودة الألم لأنّ جوابي لم يكن دقيقاً، لكنّها تكلّمت من جديد:

«هل التي تُدعى فيكتوريا خالقتكم؟».

«لا أدري...»، قلت معترفةً بجهلي ولكن بخوفٍ شديد، «لم يذكر رايلي اسمها أمامنا البتّة. وفي تلك اللّيلة كان الظلام دامساً، وشعرت بألمٍ عظيم. قال رايلي إنّ أفكارنا غير آمنة ويجب ألا نعرف اسمها لكي تبتعد أفكارنا عنها».

ورمقت جاين ذا الشعر النحاسي بنظرة، ثمّ حوّلت عينيها نحوي ثانيةً.

وقالت: «أخبريني عن رايلي، لماذا جاء بكم إلى هنا؟».

وأطلعتها على جميع أكاذيب رايلي بسرعة: «قال إنّ علينا أن نقضي على أصحاب العيون الصفر في هذا المكان. وقال إنّ القضاء عليهم سيكون سهلاً؛ وإنّ المدينة كانت ملكهم في السابق ويريدون استعادتها منّا بالقوّة. وقال إنّ كلّ الدماء التي في المدينة تصبح ملكنا بعد أن نقضي عليهم. وأعطانا رائحتها»، وأشرت نحو الإنسانة بإصبعي، وتابعت: «قال إنّ رائحة الفتاة ستدلّنا إلى الجماعة التي يجب محاربتها؛ فهي دائماً معهم. كما قال إنّ من يصل إلى الفتاة أوّلاً تكون دماؤها جائزته».

«إلاّ أنّ رايلي، قد أخطأ بعض الشيء حول موضوع السهولة». علّقت جاين بسخرية.

يبدو أنّ كلامي لاقى استحساناً لديها، فقد لمع في بالي أنّها ارتاحت لأنّ رايلي لم يخبرني، ولم يخبر الآخرين عن زيارتها القصيرة إلى بيت خالقتي فيكتوريا. هذه هي القصّة التي تريد إسماعها إلى ذوي العيون الصفر؛ فهي تودّ أن يبقى أمر تدخّلها وتدخّل الفولتوري في قرار الهجوم خفيّاً. إن كان هذا ما تريده، يمكنني الاستمرار بهذه القصّة؛ ولكنّي كنت أتمنّى أن يكون قارئ الأفكار لدى جماعة العيون الصفر قد قرأ الحقيقة التي في رأسي.

لن أتمكّن من الانتقام من هذه الشريرة، ولكنّي سأحاول إطلاع ذوي العيون الصفر على كلّ ما أعرفه عنها من خلال أفكاري.

أظهرت بإيماءةٍ من رأسي حسن تقبّلي لسخريتها من رايلي،

واستقمت في جلوسي لكي ألفت انتباه قارئ الأفكار إليّ. ثمّ تابعت القصّة التي كان يعرفها جميع أفراد جماعتنا. ولتسهيل الأمر عليّ تخيّلت أنّي كيفن، ببلاهته وجهله.

وقلت: «لم أدرِ ماذا حدث». وهنا كنت أتكلّم بصدق. لأنّي لم أفهم حقّاً سبب الفوضى التي حدثت؛ ولماذا لم أجد أثراً لكريستي وفرقتها في ميدان القتال. «انقسمنا إلى قسمين، ولكن القسم الثاني لم يلتقِ بنا لاحقاً كما كانت الخطّة. كذلك رايلي، فقد تركنا ولم يعد في ما بعد لمساعدتنا في القتال كما وعدنا. وإذا بكلّ شيءٍ يسير بعكس ما توقّعنا، ويتحوّل الجميع إلى أشلاء». ارتجفت عندما تذكّرت الجسد المقطوع الرأس الذي حسبته صخرة ووثبت فوقه لحظة وصولي إلى الساحة. ثمّ تابعت: «عندما وصلت إلى هنا، شعرت بالخوف وأردت الهروب». ثمّ أشرت برأسي إلى كارلايل، وقلت: «ولكنّ الذي هناك وعدني بعدم إيذائي إن توقّفت عن القتال».

«ولكنّه لا يملك الحقّ بإعطائك مثل هذه الوعود يا عزيزتي». قالت جاين ذلك، وكأنّها كانت تستمتع بما يجري. وأردفت بصوتٍ جافّ: «مخالفة القوانين تستوجب القصاص».

تابعت تمثيل دور كيفن، ووجّهت إليها نظرةً بلهاء كأنّي لم أفهم شيئاً من كلامها.

تحوّلت بنظرها إلى كارلايل، وقالت: «هل قضيتم عليهم جميعاً؟ ماذا عن الجزء الذي انفصل؟».

نحن انفصلنا إلى جزءين أيضاً.

توقّعت أن نهاية كريستي ورفاقها كانت على يد العوّائين. إنّهم مخيفون، وكريستي تستحقّ ذلك.

قالت جاين بنبرةٍ تبدو صادقة: «لا يمكنني إنكار إعجابي!». وهزّ مصّاصو الدماء الثلاثة الواقفون وراءها رؤوسهم تأييداً.

كانت جاين تتمنّى أن تنجح فيكتوريا وجيشها في إلحاق الأذى بجماعة العيون الصفر، ولكنّها لم تنجح.

وقالت: «لم أرَ في حياتي جماعةً تتغلّب على هجومٍ كبير بهذا الحجم وتخرج منه من دون إصابات. هل لديكم فكرةً عن سرّ هذا النجاح؟ ربّما العمل النظامي الدقيق، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار أسلوب العيش المختلف الذي تعتمدونه. ولماذا شدّة التركيز على الفتاة؟».

«كان لدى فيكتوريا حقداً على بيلاّ». أجاب ذو الشعر النحاسي.

في تلك اللّحظة اتّضح لي أنّ الهدف الرئيس من الهجوم كان القضاء على الفتاة.

أطلقت جاين ضحكةً عالية، وقالت: «هذه!؟». ثمّ ابتسمت في وجه الإنسانة كما ابتسمت منذ قليل في وجهي، وتابعت: «يبدو أنّها تؤثّر على نوعنا بطريقة قويّة وغريبة».

ولكن الفتاة لم تتغيّر ولم يظهر عليها الألم. ربّما أنّ جاين لم ترد إيذاءها؛ أو أنّ موهبة هذه الأخيرة البشعة ليست فاعلة سوى على مصّاصي الدماء.

«أرجو ألاّ تفعلي ذلك». قال ذو الشعر النحاسي بنبرة حازمة.

«كنت أقصد تقصّي الوضع فحسب... ويبدو أنّها لم تتأثّر».

راقبت ما جرى ولكنّي حرصت على إخفاء اهتمامي. إذاً، جاين لا تستطيع أن تفعل مع هذه الفتاة ما فعلته بي، لا شكّ أنّها، وبرغم ضحكاتها الساخرة، متوتّرة إلى درجة الجنون. هل لدى هذه الفتاة قوّة خاصّة؟ وهل هذا هو الأمر الذي جعل ذوي العيون الصفر يحتفظون بها؟ إن كان الأمر كذلك، فلماذا لم يتمّ تحويلها إلى مصّاصة دماء بعد؟

«حسناً، يبدو أنّ كلّ شيء قد انتهى؛ لقد فاتنا الاستمتاع بمشاهدة المعركة؛ أمرٌ غريب! إذ لم نتعوّد القيام بتحرّك غير ضروري».

وأجابها ذو الشعر النحاسي بحنكة: «إنّك على حقّ. لو وصلتم إلى هنا قبل انتهاء المعركة بنصف ساعة على الأقلّ، لتمكّنتم من تحقيق بعض أهدافكم في هذا المكان».

ابتسمت في داخلي. فقد تأكّد لي حينئذٍ أنّ ذا الشعر النحاسي هو قارئ الأفكار، وقد اطّلع على كلّ ما كان يدور في رأسي بشأن نيّات جاين الخبيثة.

نظرت إليه جاين بوجهٍ خالٍ من التعابير، وقالت: «نعم، من المؤسف أن الأمور سارت على هذا النحو، أليس كذلك؟».

هزّ قارئ الأفكار رأسه، فتساءلت ماذا كان يقرأ في رأس جاين في تلك اللّحظة؟

أدارت جاين وجهها الخالي من أيّ تعبير نحوي، فشعرت بأنّ ساعتي قد أتت. لقد حصلت على كلّ المعلومات التي كانت تريدها منّي، ولكن فاتها أنّي أطلعت قارئ الأفكار على كلّ ما عرفته عنها، ولم أفضح أسرار جماعته أمامها؛ ألست مدينة له بالانتقام لي من فيكتوريا ورايلي؟

نظرت إليه بطرف عيني، وقلت في فكري: «شكراً!».

«فيليكس؟»، قالت جاين بصوتٍ كسول.

«انتظري». صرخ قارئ الأفكار.

بعد أن التفت إلى كارلايل، قال بسرعة: «يمكننا تعليم هذه الطفلة القوانين. إنّها تبدو قابلة للتعلّم. عندما ارتكبت المخالفات كانت تجهل وجود القوانين».

وأضاف كارلايل مؤكّداً: «بالطبع، يمكننا تحمّل المسؤولية بالنسبة إلى بري».

نظرت إليهما جاين وكأنّ ما تفوّها به كان مزاحاً مضحكاً أكثر من العادة.

بالنسبة إليّ، فعلى الرّغم من تضاؤل أملي في النجاة، فقد أثر بي تدخّلهما المخلص لإنقاذي. كانا غريبين عنّي ووقوفهما إلى جانبي يعرّض وجودهما للخطر.

«قوانيننا لا تستثني أحداً»، أجابت جاين بلهجةٍ مرحة، «قد نسيء إلى سمعتنا إذا فعلنا ذلك».

كنت أصغي إلى النقاش غير آبهة بما ينتظرني، وكأن لا علاقة لي بما يجري. لن يتمكّن أصدقائي من إقناعها بعدم قتلي، فهي بمثابة الشرطة. ولكنّ شرطة مصّاصي الدماء لم تكن نظيفة البتة؛ وذوو العيون الصفر أصبحوا على علم بذلك الآن.

«لقد تذكّرت...»، أضافت جاين وهي تنظر إلى بيلاّ، «كونك لا تزالين إنسانة سيثير اهتمام كايوس الآن، وربّما سيقرّر القدوم لزيارتكم».

عبارة «لا تزالين إنسانة» تعني أنّهم يريدون تحويلها. ولكن ما الذي يؤخّرهم عن القيام بذلك؟

«لقد تحدّد الموعد». قالت ذات القامة القصيرة والشعر الأسود بصوتها الواضح. «قد نأتي إلى زيارتكم في غضون بضعة أشهر».

واختفت ابتسامة جاين كليّاً، وأشاحت بنظرها بعيداً عن ذات القامة القصيرة؛ فساورني الإحساس بأنّ ما تضمره من كراهية إلى تلك الفتاة هو أضعاف ما تضمره للفتاة الإنسانة.

والتفتت جاين إلى كارلايل بوجهها الخالي من التعابير، وقالت: «كنت سعيدة بلقائك يا كارلايل، وها إنّي أدرك أنّ آرو كان على حقّ ولم يبالغ... إلى اللّقاء».

ها أنّ الوقت قد حان. ولم أشعر بالخوف بعد. كنت آسفة على شيءٍ واحد، وهو أنّي لن أتمكّن من إطلاع فرِدْ على كلّ ما جرى. سيخوض فرِد خضمّ هذا العالم المليء بالجماعات